الباب الثانى

النصوص الأدبية فى العصر الإسلامى

تحليلا ودراسة ونقداً

— ١ —

مع رائعة من روائع « حسان »

• •

« حسان بن ثابت »

« يشيد بالأنصار ويفتخر بمناقبهم »

١ — لك الخير غضى اللوم عنى فانني
أحب من الأخلاق ما كان أجملا

٢ — غريزى وعلمى بالأمور وشيمتى
فما طائرى فيها عليك بأخيلا

٣ — فإن كنت لامنى ولا من خليقتى
فمنك الذى أمسى عن الخير أعزلا

٤ — ألم تعلمى أنى أرى البخل سبة
وأبغض ذا اللونين والمتنقلا

٥ — إذا انصرفت نفسى عن الشىء مرة
فلست إليه آخر الدهر مقبلا

٦ — وإنى إذا ماالهم ضاف قربته
زماعا ، ومرقال العشيات عيهلا

٧ — ململمة خطارة لو حملتها
على السيف لم تعدل عن السيف معدلا

٨ — إذا انبعثت من مبرك غادرت به
توائم أمثال الزباتب ذبلا

٩ — فإن بركت خوت على ثفناتها
كأن على حيز ومها حرف أعبلا

١٠ — مروعة لو خلفها صر جندب
رأيت لها من روعة القلب أفكلا

• • •

١ – يقال : غض طرفه عضاضا بالكسر وغضا بالفتح : خفضه واحتمل المكروه ، وغض عنه : نقص من قدره، يقول « بشر بن أبي خازم » في وصف سفينة :

أجالد صفهم ولقد أراني على زوراء تسجد للرياح
إذا ركبت بصاحبها خليجا تذكر ما لديه من جناح
ونحن على جوانبها قعود نغض الطرف كالإبل القماح(١)

ثم نقل هذا المعنى إلى الأمور المعنوية في (غض اللوم عني) كما في البيت .

٢ – ذريني : اتركيني ، وفي القرآن الكريم من سورة (المدثر) : « ذرني ومن خلقت وحيدا(٢) » وقد ورد المضارع منه كما في قول الله تعالى : « وقالوا لاتذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا(٣) » وليس له ماض ولا مصدر ولا اسم فاعل نطق بها العرب ، وما سمع منه على مثال (فرح) فشاذ (٤)، والشيمة : الطبع ، وطائره : أمره وعمله، وعليه قوله تعالى من سورة الإسراء – (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم كتابا يلقاه منشورا (٥) .

والأخيل : الشقراق . بتشديد الراء وكسر السين المعجمة ، إذا سقط على ظهر بعير ويرجز له (أي قطع القتب غارب البعير) وكانت العرب تتشاءم به .. يقول (الفرزدق) من قصيدة يمتدح فيها والي البحرين (قطن ابن مدركة الكلابي) .

---

(١) الشعر والشعراء ١/٢٧١ وترى الأبيات في ديوانه على نحو آخر (طالع الديوان ٤٧ وما يليها) بتحقيق الدكتور عزة حسن
(٢) الآية (١١)
(٣) آية ٢٣ من سورة نوح
(٤) انظر القاموس المحيط في مادة (وذر)
(٥) الآية (١٣)

إذا قطن بلغتنيه ابن مدرك فلاقيت من طير اليعاقيب أخيلا(١)

ويقول « ضابىء بن الحارث البرجمى :

بأدماء حرجوج كأن بدفها تهاويل هر ، أو تهاويل أخيلا(٢)

وعلى هذا فالمعنى فى (طائرى) على الحقيقة لاعلى المجاز .

٣ ــ الخليقة : الطبيعة والناس كالخلق ، والأول هو المراد ، والمقصود بالأعزل عن كل خير ، ومن معانيه المعجمية : الرمل المنفرد المنقطع والأعزل من الدواب : المائل الذنب عادة ، وسحاب لا مطر فيه ؛ وكلها معان ترتبط بالمعنى المقصود الذى ألمحنا إليه .

وقد ورد هذا البيت : « فمنك الذى أمسى عن الخير أعدلا » وهو معنى لايتناغم مع السياق ولايتسو وما ترمى إليه الأبيات ، وهو تصحيف .

٤ ــ سبة : العار ومن ويكثر الناس سبه ، والمراد الأول : والمتنقل الذى لايستقر على حال .

٥ ــ انصرف عن الشىء : مال عنه ولم يرغب فيه :

٦ ــ الهم : الحزن ، أو ماهم به فى نفسه ، ومن الثانى جاء قول الشاعر

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

وضاف : حل ضيفا ، وقريته : قدمت له القرى ، يقال : قرى بالكسر والقصر وقراء : أضافه ، والزماع : العزيمة على الرأى والإصرار

---

(١) انظر : ديوان حسان بن ثابت (الجزء الثانى ٤٩) تحقيق وتعليق د . وليد عرفات (دار صادر بيروت)

(٢) الأصمعيات ١٨١ : تحقيق وشرح الأستاذين : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ط : ٤ (دار المعارف بمصر)

عليه ، والزماع : لذوات الكلف (الشعرات المدلاة فى مؤخر الرجل من ذوات الظلف) جمع زمعة وجاء منه قول « امرىء القيس » فى وصف فرسه : ٭

يبارى الخنوف المستقل زماعه ترى شخصه كأنه عود مشجب(١)

والزمعة كذلك : تلعة صغيرة ليس لها سيل قريب ، ومنه قولهم : يتبع زماعا من الأرض(٢) والأولان هما المتبادران ، ومرقال العشيات : مبالغة اسم الفاعل (مرقل) من الإرقال ، وهو الشىء بين السير والعدو يقول (طرفة) فى معلقته .

وأنى لأمضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدى

والعيهل : السريعة ، والغليظة الصلبة .

٧ ــ الململمة : المجتمعة الخلق ، ويقال : خطر الفحل بذنبه يخطر بكسر الطاء خطرا وخطيرا وخطرانا : ضرب به يمينا وشمالا ، وهى ناقة خطارة ،ويحتمل أن تكون مبالغة من الخطر ، وهو الشىء الذى يتراهن عليه ، وعلى هذا المعنى الأخير جاء قول « سحيم بن وثيل الرياحى »

عذرت البزل إذ هى خاطرتنى فما بالى وبال ابنى لبون
وماذا يدرى الشعراء منى وقد جاوزت رأس الأربعين

ويمكن أن يكون قوله بعد ذلك : لو حملتها على السيف لم تعدل عن السيف معدلا ترشيحا لما ذكرنا ... ولم تعدل عن السيف معدلا : لم تعدل عنه ولم تهبه ، والمعدل المصدر الميمى للفعل (عدل) .

٨ ــ المبرك : مبرك الدابة ، حيث استناخها صاحبها ، وفعله برك

---

(١) ديوان (امرىء القيس) ٤٧

(٢) كتاب الجيم ٢/٤٥

٭ انظر البيت فى شرح ديوان (طرفة) ٧٤

بروكا وتبراكا : استناخ ، والزبائب ، واحده : زبيب ، والذبل : واحدة : زابل : والذبلة البعرة ، والتوأم من جميع الحيوان : المولود مع غيره فى بطن من الاثنين فصاعدا ، والمراد أن بعرها فى صغره كالزبيب لطول أسفارها وقلة رعيها .

٩ ــ التخوية : التجافى فى مبركها ويقال : خوى فى سجوده تخوية : تجافى وفرج مابين عضديه وجنبيه ، فكأن تجافى الناقة كذلك تمكين لثفناتها والثفنة من البعير :الركبة وما مس الأرض من كركرته (صدر كل ذى خف وسعداناته وأصول أفخاذه ، فالثفنات إذن : مواضع مباركها على الأرض : ركبتاها ، وموصلا ساقيها بفخذيها وكركرتها يقول « ابن مقبل » .

كأن موقع وصليها إذا بركت وقد تطابق منها الزور بالثفن

مبيت خمس من الكدرى فى جدد يفحصن عنهن باللبات والجرن (١)

والأعبل : الجبل الأبيض ، والعبلاء : أرض ذات حجارة بيض ، والحيزوم : الصدر والجمع . الحيازيم ، ومن معلقة (طرفة) .

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم التربب المفايل باليد (٢)

١٠ ــ مروعة من الروع . الفزع ، وفى القرآن الكريم . « فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط (٣) »

وصر . صاح ، ومن سورة الذاريات « فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم (٤) » ، والجندب . الجراد الصغير ، والأفكل : الرعدة

---

(١) الشعر والشعراء ١/٣٩٧

(٢) شرح ديوان (طرفة بن العبد) ٧٣ ، وراجع شرح المعلقات السبع للزوزنى ٤٨

(٣) آية (٧٤) من سورة (هود)

(٤) الآية (٢٩)

فى عتاب رقيق يزجى (حسان بن ثابت) رضى الله عنه إلى صاحبته ، بعض النصائح الغالية ، التى لا يمكن لسوىّ من الناس أن يتحلل منها قيد أنملة ، وربما بدت السلوكيات على هذا النحو مجلبة للذم كما يتراءى لعشرة الإنسان ، أو بعض خاصته ، وما كانت الأخلاق الجميلة فى أى معرض ظهرت مدعاة لسوء الظن أو اللوم ، بل قد يكون الذم ناتجاً من قصر النظر ، أو عدم الحنكة بالحياة ، وإذا كان لابد من اللوم ، فليس لأحد أن يصادر رأى غيره فى ماجبل عليه من أخلاق يدين بها ، طبعته عليها المواقف على أن يتحمل مغبة عمله ، ووزر تصرفه إذ لا تزر وازرة وزر أخرى وكأنه يخير صاحبته بين اثنين :

(أ) أن تحاكيه فى حب المكارم ؛

(ب) أو تتركه وشأنه .

وأنما تدخل منها بعد هذا الخيار فمرفوض لأنه لايحمل دفقة من شعور بالخير أو طيفاً من أطياف نوره :

ثم يمضى « حسان » على عادة الناصح الأمين فى الضغط على المعانى التى دفعت صاحبته إلى أن تقف منه هذا الموقف فيذكرها بأن العقلاء من الناس ماوقع بينهم خلاف فيما يجلبه البخل من عار لصاحبه ، أو ليست توجيهات السماء فى ذلك غاية فى الروعة : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ؛ هو خيراً لهم بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعلمو خبير »(١) وكيف يكون البخل خلقاً له ، وهو الذى درج على أن الكرام من العرب أبوا إلا أن ينزلوا أنفسهم من الضيف منزلة العبد من سيده .

وإنى لعبد الضيف مادام نازلا وماشيمة لى غيرها تشبه العبدا

---

(١) آل عمران آية ١٨٠

كما درج على الترحاب به فى حفاوة منقطعة النظير :

وداع دعا بعد الهدوء كأنما
يقاتل أهوال السرى وتقاتله
فلما سمعت الصوت ناديت نحوه
بصوت كريم الجد حلو شمائله
فأبرزت نارى ثم أثقبت ضوءها
وأخرجت كلبى وهو فى البيت داخله
وقلت له أهلا وسهلا ومرحباً
رشدت ولم أقعد إليه أسائله(١)

وإذا كان البخل مسبة ومنقصة فإن النفاق الكذوب ، والملق الرخيص أدعى إلى المذمة واللعنة ؛ لأنها ضمان تودى بكيان الإنسان وتجرده من أخص خصائصه : احترامه لذاتيته ، ورحم الله القائل :

ولاخير فى ود امرئ متلون إذا الريح مالت مال حيث تميل

وأجدر بالعاقل أن يحدد لنفسه الغاية والمبدأ ولا عليه بعد ذلك من غضاضة أو حرج فيما يفعل ، ما دام ذلك صادرا عن إيمانه ويقينه بما ألزم نفسه به ، ومن ثم لايعرف أصحاب المبادىء السامية التردد مهما تجلبهم المغريات ، أو تفتنهم بريقها الألاق وبهرجها الخادع .

يقولون : هذا مشرب قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وليس أدل على هذا من مضيهم نحو أهدافهم ، ولو كانت طرقهم محفوفة بالمخاطر أو الصعاب ، فإذا هموا بشىء أو نزل بساحتهم مايفت فى العضد أو يضعف من العزائم تساموا بأنفسهم عن الضعف والإحجام وانطلقوا فى شغل شاغل إلى مايضمن لهم النجاح فى مسعاهم ، من وسائل يرون فيها تأكيدا لما عزموا عليه ، فكرائم النوق سبيلهم الذى يشقونه لإبلاغهم المقاصد العليا التى تلح عليهم ، وتعيش بين جوانحهم ؟

(١) انظر الفتوة عند العرب للاستاذ عمر الدسوقى ٧٦ ومابعدها .

١١ – وإنا لقوم ما نسود غادرا ... ولا ناكلا عند الحمالة زملا
١٢ – ولا مانعاً للمال فيما ينوبه ... ولا ناكلا فى الحرب جبسا مغفلا
١٣ – ولا جعبسا هيابة متهكما ... علينا ، ولا فيها كهاماً مفيلا
١٤ – نسود منا كل أشيب بارع ... أغر تراه بالجلال مكللا
١٥ – إذا ما الندى أجنى الندى وابتنى ... العلا وألفى ذا طول على من تطولا
١٦ – فلست بلاق ناشئاً من شبابنا ... وإن كان أندى من سوانا وأحولا
١٧ – نطيع فعال الشيخ منا إذا سما ... لأمر ، ولا نعيا إذا الأمر أعضلا
١٨ – له أربة فى حزمه وفعاله ... وإن كان منا حازم الرأى حولا
١٩ – وما ذاك إلا أننا جعلت لنا ... أكابرنا فى أول الخير أولا

الناكل : الضعيف والجبان ، وفى الحديث : مضر صخرة الله التى لا تنكل : أى لا تدفع ما وقعت عليه ، ويقال نكل عنه بفتح الكاف وكسرها نكولا : نكص وجبن ، والحمالة : الدية والكفالة والفعل حمل به يحمل حمالة ، والزمل : الجبان والضعيف ، والزميلة ، بتشديد الزاى وضمها والزمالة : مثله ، وربما كان اشتقاقه كذلك لأنه يتزمل فى ثيابه يقول « امرؤ القيس » :

وقضبت قيمها فتكرهه ... فتقول : هل بك صاح من مس ؟
فأقول مس إن مثلك لا ... يثنى على الزمالة النكس(١)

وقد روى هذا البيت :

وإنا لقوم ما نسود غادرا ... ولا ناكلا فى الحرب حبسا مغفلا

١٢ – ينوبه : يصيبه وينتابه ، والجبس : الثقيل الوخم الذى لا خير عنده : يقول البحترى فى مطلع سينيته الشهيرة التى عارضها شوقى :

(١) ديوان (امرىء القيس) ٢٤٤ .

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس

١٣ – الجعبس ، وجمعه جعابيس ،ومثله الجعسوس والجعاسيس : هم أخسأ الناس والأمهم خلقة وخلقا ، والجعيس كذلك : المائق الأحمق ، والعيابة والعياب والعيبة كهمزة : كثير العيب للناس ، والفهه والفهاهة والفهفهة ، العي والنسيان : والكهام الثقيل الذى لا غناء عنده ، يقول « عمرو بن قميئة » :

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمى وليس يرام
فلو أنها نبل إذاً لاتقيتها ولكنني أرمى بغير سهام
إذا مارآني الناس قالوا : ألم تكن حديثا جديد البز غير كهام ؟ (١)

وكذلك يعزى إلى (عمرو بن شأس) قوله

فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ولا فينا يعد بخيل(٢)

والمفيل : يقال : فال رأيه يفيل ، وتفيل : أخطأ وضعف

١٤ – البارع : الفاضل ، والإكليل : التاج .

١٥ – انتدى : أخذ مكانه من ناديه : مجلسه ، وفى القرآن الكريم من سورة « العنكبوت » « وتأتون فى ناديكم المنكر »(٣) وأجنى الندى : مأخوذ من إجناء الشجر ، وهو بلوغ ثماره أن تجتنى والمراد ، وجد لديه الحضور ما يجنى ويستفاد،وألفى : وجد . والطول : الفضل والقدرة والغنى والسعة ، وتطول عليهم : امتن كطال عليهم .

---

(١) ديوان عمرو بن قميئة ٣٩ تحقيق وشرح خليل ابراهيم العطية،وانظر كذلك الشعر والشعراء ٣٧٧١١ برواية أخرى للابيات مع اختلاف فى ترتيبها .
(٢) الأمالى لأبى على القالى ١–٢٧٣
(٣) الآية (٢٩)

١٦ – الناشىء : فويق المحتلم ، أو هو الحدث الذى جاوز حد الصغر ، والأحول : الحيلة ، أى أقدر على الحيلة من سواه .

١٧ – فى رواية : (يطيق فعال الشيخ منا : . إلخ) ولعلها أوضح من الرواية التى بين أيدينا ، ومن معانى (يطيق) : عدم التحمل والمقدرة ، وفى القرآن الكريم من سورة (البقرة) « وعلى الذين يطيقونه فدية ، طعام مسكين »(١) وعلى تلك الرواية تتضح علاقة البيت بسابقه ، أما على الرواية التى معنا فالبيت مقطوع الصلة بما قبله ، والفعال : كسحاب اسم الفعل الحسن ، والكرم أو يكون فى الخير والشر وهو محض فعل الواحد ، وإذا كان من فاعلين فهو « فعال » بالكسر ، وهو أيضاً جمع فعل ، ويقال أعضلت المرأة بولدها فهى معضل ، عسرت عليها ولادته ، وتعضل الداء الأطباء وأعضلهم ومنه المعضلات : الشدائد ويرى لدكتور « وليد عرفات » أن البيتين : السادس والسابع عشر قد يكونان (تعريضاً بالأمويين ، فقد توفى يزيد بن معاوية وعمره ٣٨ سنة (أو بين ٢٠ – ٣٠ سنة) على رأى (ابن حزم) وابنه (معاوية) وهو دون الثلاثين بل قيل ٢١ عاماً ، أو حتى ١٧ عاماً والوليد توفى وعمره ٤٨ سنة ، وسليمان بين ٣٠ ، ٤٠ سنة ، وعمر بن عبد العزيز ٣٩ سنة ، ويزيد بن عبد الملك ٣٠ – ٤٠ سنة (٢) :

ولعله فهم ذلك من البيتين (١٩ و ٣٩ إلى آخر القصيدة) كما ألمح إلى ذلك .

١٨ – الأربة : العقل والدين والحنكة فى حل العقد ، والحول : الذى يحتال للامور فيتصرف فيها .

---

(١) آية (١٨٤) .

(٢) راجع ديوان حسان بن ثابت ٢/٥٢ .

١٩ ــ أكابرنا : لعل المراد : الأكابر من الأنصار ، ويروى البيت بالرواية التالية :

وما ذاك إلا أننا جعلت لنا أكابرنا فى أول الحق أولا

* * *

ويخلص « حسان » من مقدمته التى كانت إرهاصاً لما تتضمنه القصيدة ، إلى مفاخر قومه من الأنصار فيراهم أهلا لشتى المكرمات ، ومن بينها أنهم يضعون الأمور فى نصابها ، فتولية الأمر إلى من يستحقه من أبرز سماتهم :

لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا(*)

ولهذا ترى السيادة فيهم مقصورة على الأماثل من الناس الذين يتصفون بالشجاعة والمواجهة الجسور التى لا تنطوى على خور أو ضعف أو شح وكزازة ، أو اللؤم والخنا ، أو العى والحصر والأفن فى الرأى ، وما إليها من صفات تمحو السادة ، بل وتسىء إلى القوم الذين كانوا وراء التنصيب أو الاختيار ..

وحيث كانت السيادة عندهم بهذه المثابة فلا جرم تكون للأشياخ ، الذين تمرسوا بمواقف الحياة ، فتلقنوا منها دروساً نافعة تقومهم ، وتسدد خطاهم .

والشيب إن يحلل فإن وراءه عمرا يكون خلاله متنفس

وما أحسن ما قال « البحترى » :

عقلت فودعت التصابى وإنما تصرم ذو المرء أن يكمل العقل(١)

فالرأى عندهم صائب لا خطل فيه ، والحجة فى منطقهم تعصف بمن تسول له نفسه أن يتطول على أحدهم ، ومهما يكن للشباب من شعبية

* من شعر الأفوه الأودى (انظر الطرائف الأدبية ١٠)

(١) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى ٢-٢٣٢ للآمدى .

وحسن تدبير فيما قد يعن لهم من مواقف ويعايشونه من أحوال تتعاورهم فإن مايصدرون عنه فى ذلك معزو إلى مابداخلهم من فورة الشباب وحماسته ... وأين هم من مكارم الشيوخ وما سطروه بأيديهم من مآثر ومناقب ، أتراهم يتساموون إلى أن يقعوا قريباً منهم ؟

ذلك مالا يكون ، وسر ذلك واضح يكمن فى أربة الشيخ وعقله وكياسته ولئن كان القوم على هذه الصورة من اختيار من يسودون إن ذلك فى حقيقته راجع إلى ما ألفوه عند الأنصار حيث درجوا على اختيار النماذج الصالحة من الناس فانتفعوا بما شاهدوا . واقتدوا بفعالهم .

أولئــك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا — يا جرير — المجامع

على أن « حسانا » فى هذه الأبيات يومئ إلى ماحدث من تصدع فى خلافة « بنى أمية » كان سببه إسناد الخلافة لا إلى نفر عرفت فيهم حكمة الشيوخ ومعالجة الأمور فى ضوء ما توحى به من نتائج طيبة، ولكنهم كانوا على النقيض تماماً باستثناء أقلية قليلة أعادوا خلافة « بنى أمية » إلى عهد الراشدين الزاهر ، بيد أن المنية أعجلتهم ، أفيمكن أن توازن هذه الصورة بما كان عند الأنصار من عقول راجحة وسياسة رشيدة .

كل هذا كان بالأمس وما كان بالأمس تولى كالضباب
ومحا السلوان ماضى كما تفرط الأنفاس عقدا من حباب

* * *

٢٠ — فنحن الذرى من نسل آدم والعرى
تربع فينـــا المجـد حتى تأثلا

٢١ — بنى العز بيتا فاستقرت عماده
علينا فأعيا الناس أن يتحولا

٢٢ — وإنك لن تلقى من الناس معشرا
أعز من الأنصار عزا وأفضلا

٢٣ ـ وأكثر أن تلقى إذا ما أتيتهم
لهم سيداً ضخم الدسيعة جحفلا

٢٤ ـ وأشيب ميمون النقيبة يبتغى
به الحطر الأعلى وطفلا مؤثلا

٢٢ ـ وأمرد مرتاحا إذا ما ندبته
تحمـــــل ما حملته فتربلا

٢٦ ـ ومسترشداً فى الحكم لا متوجها
ولا قابلا عند الخصومة أخطلا

٢٧ ـ وعداً خطيباً لا يطاق جوابه
وذا أربة فى شعره متنخلا

٢٨ ـ وأصيد نهاضاً إلى السيف صارما
إذا ما دعا داع إلى الموت أرقلا

٢٩ ـ وأغيد مختالا بجر إزاره
كثير الندى طلق اليدين معذلا

٣٠ ـ ومستمطراً فى الأزل أصبح سيبه
على معتفيه دائم الودق مسبلا

* * *

٢٠ ـ الذرا : جمع ذروة: والذروة من كل شىء: أعلاه، والعرى جمع عروة ، والعروة من الكوز : المقبض ، والمراد الموثوق بهم أو هم كالعروة من المرعى : الأصول والشجر التى تبقى السنة كلها ، وتأثل الشىء : اجتماعه وثبوته ، والأثلة من كل شىء : أصله ويقال : هو لاتنحت أثلته : لاعيب فيه ولا نقص . ويقال : هو ينحث أثلتنا : أى يطعن فى حسبنا ، قال « الأعشى » :

ألست منتهيا عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ماأطت الأبل(١)

---

(١) المعجم الكبير (حرف الهمزة) مادة (أثل ٩٧) مجمع اللغة العربية) .

٢١ ــ العماد : الأبنية الرفيعة ، جمع عمادة ويؤنث ، وهو طويل العماد : منزله معلم لزائريه ، وفى القرآن الكريم من سورة الفجر « إرم ذات العماد »(١) .

٢٢ ــ الدسيعة : الجفنة ، ويقال المكرمة ، وفى اللسان : من دسع بمعنى (دفع) وهى العطية ويقال الجفنة ، يقول « دكين بن رجاء » الراجز يمتدح « عمر بن عبد العزيز » :

يا عمر الخيرات والمكارم وعمر الدسائع الغطائم
انى امرؤ من قطن بن دارم أطلب دينى من أخ مكارم(٢)

والجحفل : السيد الكريم .

٢٤ ــ النقيبة : النفس والعقل والمشورة ونفاذ الرأى ، واليمن : البركة ، ومنه فلان ميمون ، وأيمن .

٢٥ ــ الأمرد : الشاب طر شاربه ولم تنبت لحيته ، وندبته ، طلبته ودعوته ، وتربل : عظم شأنه ، والتربل : الضخم ، واشتقاق «الرئبال» منه ، ويحتمل أن يكون المعنى نبت كما ينبت الربل بفتح الباء ، وهو نبات ينبت ببرد الليل والندى لا بالمطر فى آخر الصيف واستقبال الشتاء ، ذكره (امرؤ القيس) فى شعره فقال يصف الفرس :

وراح كتيس الربل ينفض رأسه أذاة به من صائك متحلب(٣)

٢٦ ــ الأخطل : الخطل : الكلام الكثير الفاسد ، والاضطراب فى الإنسان :

٢٧ ــ العد : البئر لها مادة من الشعر ، وهو على التشبيه إذ شبه الخطيب

---

(١) آية (٧) .
(٢) الشعر والشعراء ٢/٦١١ .
(٣) ديوان (امرئ القيس) ٥٤ .

فى تدفقه وانثياله بالبئر التى لا تنزح ،والأربة هنا . القوة والاستحكام ، وتأريب العقدة : توثيقها وعقدها ، يقول « ابن الدمينة »

وكيف مع الحبل الذى بقيت له قوى محكمات عقد هن مؤرب(١)

٢٨ ــ الأصيد : الملك ، ورافع رأسه كبراً ، والشجاع . وأرقل : أسرع .

٢٩ ــ الأغيد : الشاب الطرى ،والندى : الكرم ، والمعذل : الملوم على كرمه وعطاياه .

٣٠ ــ الأزل : الضيق والشدة ، ومنه قولهم سنة أزول : أى شديدة، ويقولون أزل آزل على المبالغة ، ومن ذلك قول (رؤبة) يمدح :

وابنا نزار فرجا الزلا زلا عن المصلين وأرلا آزلا

والأزل كذلك : شدة اليأس ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : « عجب ربكم من أزلكم وقنوطكم »(٢) .

والسيب : العطاء، والمعتفين : طالبى جوده ، والودق : المطر ، وفى القرآن الكريم من سورة (النور) : ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله»(٣)،والمسبل : يقال أسبلت الطريق : كثرت سابلتها وأسبلت السماء : أمطرت وأسبل الدمع : أرسله .

و« حسان » إذ يتكلم عن السيادة فى قومه ينتهى إلى أنهم هامة الناس فما ترى المجد والشرف إلا فيهم ، ليس ذلك عن ادعاء أو تبجح بل عن أهلية وجدارة ... فالعزعشى فى ركابهم أينما وجدوا ، يأبى أن ينتقل منهم

---

(١) المعجم الكبير (مادة أرب) ١٧٧ .
(٢) المصدر السابق ٢٥١ .
(٣) آية (٤٣) .

إلى غيرهم ، وكأنما شد بأمراس إلى دوحتهم الظليلة التى جمعت معشرا من الناس ، خط كل منهم صفحات ماجدة ، ستبقى شذى يتضوع عبيره ، ونوراً يضئ بسناه الآفاق فى كل عصر ومصر ، فإذا ما عاينتهم راعتك عطايا السادة يهبونها المحتاجين والمعوزين ، كما شدك إليهم هؤلاء الأكارم من الشيوخ وكلهم حكمة تنطلق وتتدفق فلا تخطئ رأيهم أو تنبو عن الحق كلمتهم ، وليس الشيوخ وحدهم مناط الخير أو أهله ، ولكن أطفالهم كذلك اعتادوا هذا الخلق ، حتى أصبحت الآمال تجرى على أيديهم ، وهل يغيب عنك شبابهم وفتيانهم !!! إن أعينهم عضيضة عن الشر ، يتحملون الأعباء ينوء بها الأشداء من الرجال ، والمغاوير من الأبطال كأن الشاعر عناهم حين قال :

فأرح شيوخك من تكاليف الوغى واحمل على شبانك الأعباء

ويبدو ذلك فى الأزمات والشدائد :

إذا ما دعوا لم يسألوا من دعاهمو لأية حرب أم بأى مكان ؟ . .

ويهولك القضاة الذين جلسوا للفصل بين المتقاضين ، حين تراهم يسترشدون فى أحكامهم عن أناة وتريث وفهم بصيرة ، لا تملى عليهم الأحكام ، ولا هم كذلك يصيخون الأسماع لدوى الشهادة المضطربة ، التى تتناقض أبعادها ، كل ذلك منهم تحريا لصحة الحكم الذى يودون أن يصيب مقطع الحق ، ولشد ما يأسرك خطباؤهم بلسنهم وبلاغتهم فلا ترى فيهم خطيبا يتعلثم ، أو يتوقف فى عرض أفكاره ، بل تسمعها منه أرسالا طيعة ، لا تستعصى عليه أو تشرد منه ، ويملؤك الإعجاب إذ ترى وجهاءهم يستحثون الخطا للذهاب إلى ساحة الشرف والجهاد ، إيمانا منهم بالظفر بإحدى الحسنيين : الشهادة أو الحياة الحرة الكريمة ، ويجرى على السنن ذاته فتيانهم الذين بلغوا شأوا لا يبارى فى الإغراق والعطايا حتى إن أحدهم

يطلق يديه فى غير ما حساب لغد ، أو تخويف من عاديات الأيام ، فشأنه كما قال الشاعر :

ولو لم يكن فى كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائلـــه

وإذا كان هذا ديدنهم فى الرخاء — فإنهم فى سنى القحط والشدة يخفون لذلك ، حتى لتشبه عطاياهم السيل الذى يهمى دون بخل أو إمساك .

٣١ — لنا حرة ما طورة بحبالهـــا ... بنى المجد فيها بيتـــه فتأهـــلا

٣٢ — بها النخل والآطام تجرى خلالها ... جداول قد تعلو رقاقا وجرولا

٣٣ — إذا جدول منها تصرم ماؤه ... وصلنا إليه بالنواضح جدولا

٣٤ — على كل مفهاق خسيف غروبها ... تفرغ فى حوض من الصخر أنجلا

٣٥ — له غلل فى ظل كل حديقة ... يعارض يعبوبا من الماء سلسلا

٣٦ — إذا جئتها ألفيت فى حجراتها ... عناجيج قبا والسوام المؤبـــلا

٣٧ — جعلنا لها أسيا فنا ورماحنا ... من الجيش والأعراب كهفا ومعقلا

٣٨ — إذا جمعوا جمعا سمونا إليهم ... بهندية تسقى الذعاف المثمـــلا

٣٩ — نصرنا بها خير البرية كلها ... إماما ، ووقرنا الكتاب المـــنزلا

٤٠ — نصرنا وآوينا وقوم ضربنا ... له بالسيوف ميل من كان أميلا

٤١ — وإنك لن تلقى لنا من معنف ... ولا عائب إلا لئيما مضلـــلا

٤٢ — وإلا امرأ قد ناله من سيوفنا ... ذباب فأمسى ماثل الشق أعزلا

٤٣ — فمن يأتنا أو يلقنا عن جنابة ... يجد عندنا مثوى كريما وموئلا

٤٤ — نجير فلا يخشى البوادر جارنا ... ولاقى الغنى فى دورنا فتمولا

* * *

٣١ — الحرة : الأرض ذات الحجارة السود ، والمدينة بين حرتين كما جاء ذكر ذلك فى بعض أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، والمأطورة : التى أحاطت بها الجبال ، ولهذا سموا (المذنب) أطيرا لإحاطته بصاحبه ، على حد ما قاله « مسكين الدرامى » :

أبصرتنى بأطير الرجا ل ، وكلفتنى مايقول البشر (١)

وتأهل : اتخذ له أهلا .

٣٢ ــ الآطام ، واحدها : أطم بضمة وبضمتين : كل حصن مبنى بالحجارة ، والحداول واحدها جدول : النهر الصغير ، والرقاق : الأرض الصلبة المستوية ، والجرول : ذات الحجارة ومنه أرض جرلة ، إذا كانت ذات حجارة .

٣٣ ــ تصرم ماؤه : جف منه الماء ، والنواضح : الإبل ، ويقال نضح النخل : سقاهـــا بالساقية ، وسنا الساقى يسنو سنوا : إذا استقى على البعير خاصة .

٣٤ ــ المفهاق : يقال بئر مفهاق : أى كثيرة الماء ، والخسيف : التى خسف جبلها فنبعت بماء كثير فلاينقطع ، والخسوف بفتح الخاء والمخسوفة والخسيقة كذلك والجمع : أخسفة ، والغروب : واحده غرب : الدلو العظمة او التى تجرها الإبل ، والأنجل ، الواسع .

٣٥ ــ الغلل بفتح الغين : الماء الجارى تحت النخل ، ويروى (غلل) بضم العين والمراد : التغلغل فى كل حديقة ، واليعبوب ، النهر الجارى ، والسلسل ، الماضى فى تدفقه وجريته

٣٦ ــ الحجرات ، واحدها ، حجرة : الناحية ، والعناجيج ، واحدها عنجوج : الطويل من الخيل ، أو هى التى تردى (تعدو) على أحد شقيها قال (الشاعر) «حميد(*)» :

---

(١) المعجم الكبير ٣٤٧

(*) رجعت إلى ديوان (حميد بن نور الهلالى) . وإلى قافية (العين) منه ، وعلى الأخص قصيدته :

كأن الربان الدهم فى سرعانه عشار من الكلبية الجون ظلع

رغبة فى الوقوف على هذا البيت بين أبيات القصيدة البالغة أبياتها تسعة عشر بيتا (من ١٠٣ / ١١٠) فلم أعثر على البيت .

كميث من اللاتى تقدم منكباً وقد كف منها منكب فهو أعنج (١)

ويقول « سهم بن حنظلة الغنوى »

ترى العناجيج تمرى بعد مالغبت بالقد مريا ، وما يمرى ومالغبا (٢)

والقب ، واحده : أقب : الضامر ، والسوام : الإبل الراتع ، والمؤبل ما كان للنسل منها بعد الإحسان إليه وتسمينه ، يقول (رؤبة) -

إنى وأفأت المائة المؤبلة

٣٨ ــ الهندية : سيوف مصنوعة بالهند ، والذعاف : السم ، أوسم ساعة ، أوالذى قد قوى بغيره لتزاد فعاليته ، والمثمل : السم المقوى بالسلع (شجرمر) .

٣٩ ــ خير البرية : الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقرناً : عظمنا من التوقير ، وفى سورة « الفتح » : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتعزروه ، وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا (٣)

٤٢ ــ ذباب كل شىء : حده ، يقول (أوس بن حجر) :

وليس بطارق الجيران منى ذباب لاينيم ولا ينام (٤)

٤٣ ــ الحنابة : اسم للغربة ، والموئل : الملجأ والمستقر

٤٤ ــ البوادر ، واحدها : بادرة ما يبدر من حدتك فى الغضب من قول أوفعل ، وشباة السيف . وتمول : صار ذا مال .

وقوم كهؤلاء ضرب المجد أطنابه فيهم ، جدير بأن تدين لهم الربوع بالولاء ، فالمدينة التى هاجر إليها النبى صلى الله عليه وسلم . واستقبلته بشوق ظامىء ، هى المكان الذى يستروحون فيه نسائم الحياة ويتنفسون فيه عبق الذكرى ، وحسبهم هذا المكان المقدس الذى كان منار الوجود

---

(١) كتاب الجيم ٢ / ٢٩٩

(٢) الأصمعيات ٥٤ .

(٣) الآيتان ٨ ، ٩)

(٤) ديوان أوس بن حجر تحقيق د . محمد يوسف نجم ١١٥

بما فيه من أمجاد عمرت بأضوائها الآفاق ، وما يضمه فى ثراه من جداول يجرى ماؤها رقراقاً سلسالا ، ينساب بين النخيل ، ويتغلغل فى أماكنها ، حتى تشرب وتروى. وإن العجب ليتملكك إذ ترى الماء يغطى بقاع هذا البلد ، وهذا سر من أسرار الله وناموس من نواميسه فى أرضه ، ولم لا؟ وقد جعل الله من الماء كل شىء حى. . . وما يكاد الماء يجف من مكان حتى تكون الروافد هنالك مترقبة ، تحنو على هذا الجدول الذى فرغ ماؤه بمعين من مائها لا ينضب ، وترفده بما يجرى فى حناياها ، فإذا أمواج المياه تتلاطم مرة وتتعارض مرة أخرى . . .

وإذا خطر لك أن تذهب إلى تلك الأماكن الخلابة الوادعة ، تجيل بصرك فى أرجائها ومناحيها وقع منك الطرف على خيول مضمرة وإبل ترتع وتنطلق بين المراعى والأودية المعشبة. كل مكان يذكر بنعم الله التى لا تحصى ولا تعد : هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »(١)

وهذه الآلاء تفرض علينا أن نحوطها بسياج منيع من الحفاظ والرعاية والصون ، وإن كلفنا ذلك أن ننتضى سيوفنا الباترة ، ونشرع رماحنا المعدة ، حتى تظل المدينة آمنة من العدوان عليها ، بمنأى عمن يريدون أن يعيثوا فيها الفساد ، أو يقوضوا صرح الأمن الشامخ الذى أقمناه حجراً حجراً منذ نصرنا النبى صلى الله عليه وسلم فى دعوته من أعداء دينه وكتابه ، وكان محتوماً علينا أن نقف منه موقف المؤيد بكل ذرة فى كيانه ، أو نبضة لعرقه .

هل الدين إلا معقل نحتمى به ... إذا دلف العادى إلينا فأسرعا
هو الدين أن يذهب فلا عز بعده ... وإن جد ساعينا على إثر من سعى

---

(١) النحل (الآيتان ١٠ ، ١١)

ولم ندخر وسعاً فى هذا السبيل ، فمضينا ننحى عن طريق الدعوة الأشواك ، وأعلنا الحرب جهاراً على المعتدين الذين كان بودهم أن يطفئوا نور الله ؛ ولكن الله أبى إلا أن يتم نوره ولو كره الجاحدون المارقون ، فمن ذا يجرؤ — بعد هذا — على أن يقلب لنا ظهر المجن ، أوينال من دورنا المشرق الذى كتبناه بمداد من نور؟

إن من يروم منقصتنا أوالغض من شأننا مغرض ما فى ذلك ، شك وهو — على أية حال — لايعدو أن يكون واحداً من الموتورين الذين قومناهم بسيوفنا ، وظل على حاله من الضلال والبهتان ، فإن لم يكن فلئيم غشت بصيرته ظلمات كثيفة حجبت عنه نور الحق ، وعاش فى عماية يخبط خبط عشواء ، وهؤلاء أو أولئك لاخطر لهم ولاوزن لأن معاداتهم للإسلام وأنصاره ليست نابعة من موقف حيادى عنه يصدرون ، ولوكان لقامت لهم الحجة ، أما وهذه حالهم فإن معاداتهم لله ولرسوله وللمؤمنين عداء لا يمكن أن يطمس بها موقف الأنصار الذين آووا الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه ، ومن ثم فلا تغريب أن يتقولوا ما يتقولون .

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

وما نزال على العهد ماضين ، تنزل الغريب ، ونحله منا محل النفس ، ونعد له الوطاء اللين ، والمكان الوفير فيجد فى كنفنا الجوار الطيب والإيناس الودود ، والسعة فى المال والبسطة فى الرزق ، وذلك راجع إلى مهد الصحبة الكريمة ، والوفاء المقيم .

حول القصيدة

تتمحض هذه القصيدة للفخر ، باستثناء المقدمة التى مهدت للفخر الذى ساد جو القصيدة بأكملها . . .

والواقع الذى لاخلاف عليه أن القصيدة نقلة بالفخر من طابع إلى طابع، ومن شكل إلى شكل . . . فقد عاصر « حسان » فترتين أخذ الفخر فيهما سمتا معيناً يختلف فى خطوطه العريضة وعناصره الأصيلة فى إحداهما عن الأخرى : فترة ما قبل الإسلام عنده ، وفترة بعد انضوائه تحت رايته ولاعجب فالفخر مركوز فى فطرة الإنسان تحاول أن تجعل منه سجلا لمفاخرها وتاريخاً لأمجادها . .

ولذلك كان الفخر صدى العواطف الملتهبة والانفعال العميق . يجنح فى كثير من صوره إلى المبالغة كى يشبع فى الشاعر نزعة ذاتية عارمة تهدر فى أعماقه ، وبين جوانحه . .

والمتأمل فى قصائد الفخر التى حفل بها الشعر العربى فى الجاهلية يرى أن أخص خصائصه تتمثل فى ذاتية الشاعر ، يسكبها فى دفقات شعورية على القصيدة ، متغنياً بما له من خلال متعددة ، يراها جديرة بالإشادة والتنويه ، وذلك « أن العربى نزوع من فطرته إلى العلاء ، ميال إلى التعالى والمباهاة شديد الاندفاق بما فى نفسه من نزعات والتغنى بما فيها من حسنات شديد التطلع إلى ما مضى من الزمان وإلى مآثر الآباء والأجداد وهم فى نظره هو عاملا بأيديهم ، مفكرا بعقولهم باذلا بأكفهم رافعاً مداميك المجد بأناملهم الزهراء قائلا أروع القول بألسنتهم البليغة ، وللصحراء الجدبة يد فعالة فى تطلب مالايوجد، وفى استثارة الهمة لنيل المثل العليا وللأخطار والضيقات يد فعالة فى تنزى الطموح وتوثبه إلى الذرى ولمهاجمة العناصر

وقوى العدو الغازى أو المستعمر يد فعالة فى اهتزاز الأعصاب واستحثاث الغضبة الكبرى التى تنفجر مفاجر لايحد من انطلاقها حد ، والتى تتسلح بأجنحة الخيال المضخم وتدوم فى أجواء تناطح غوارب المستحيل»(١).

ومن هنا برز الفخر فى معارض شتى فأحيانا يدور (الفخر) على محور قبلى بحت ، يعدد الشاعر فيه ما للقبيلة من الأيادى الطولى ، والمناقب الغر ، ولا يجد الشاعر — حيال ذلك من بد — سوى أن يغنى فى قبيلته التى يتحدث عنها ليرفع ذكرها فى الآفاق ، وقد ضرب « عمرو بن كلثوم » بمعلقته الشائعة مثلا ، لا ضريب له .. أولا ترى إلى قوله فيها :

متى ننقل إلى قوم رحانـــا ... يكونوا فى اللقاء لهـا طحينـا
يكون ثفالها شرقى نجـــد ... ولهوتها قضاعـــة أجمعينـــا
نزلتم منزل الأضياف منـا ... فأعجلنا القرى أن تشمتونـا
قريناكم فعجلنـــــا قراكم ... قبيل الصبح مرداة طحونـا
نعم أناسنا ونعف عنهـــم ... ونحمل عنهمو ما حملونـــا

وحينا ترى الشاعر يتحدث عن ذاتيته لا من وراء حديثه وفخره بالقبيلة ولكن بما يميزه وينفرد به عن أنداده أو نظرائه ، فإذا حلا له أن يتغنى ببطولاته أو فروسيته ، جعل مادتها المواقف التى خاضها ، والتى بنفسه فى غمراتها وأتونها ، دليلا على تأكيد الشخصية عنده والذاتية فيه ، وتأمل قول « قيس بن الخطيم » :

ثأرت عديا والخطيم فلم أضع ... ولاية أشياء جعلت إزاءهـا
ضربت بذى الزرين ربقة مالك ... فأبت بنفس قد أصبت شفاءها
وسامحنى فيها ابن عمرو بن عامر ... خداش ، فأدى نعمة وأفاءها
طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر ... لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

---

(١) الفخر والحماسة ٩ (من فنون الأدب العربى) للاستاذ « حنا الفاخورى » .

ملكت بها كفى فأنهرت فتقها ... يرى قائما من [illegible] ا وراءها

وجماع الفضائل عند الجاهليين أن يخف كل منهم إلى المروءة عن طواعية ورضا ، وأن ينشط لذلك بدافع من نفسه ، لا بإرشاد أو توجيه أو انصياع إلى إنسان — والمحك العملى أن يبذل الواحد منهم نفسه وماله فأما إذا تقاعس أو توانى كان ذلك أمارة على الادعاء ، وحينئذ ينبغى له أن ينأى بنفسه عن عداد ذوى المروءة . . . والشعر الجاهلى زاخر بفيض من هـذه المعانى التى تطلعنا على دواعى الفخر عند الجاهليين ، وهـذا « عنترة » يقول :

وللموت خير للفتى من حياته ... إذا لم يثب للأمر إلا بقائد
فعالج جسيمات الأمور ولا تكن ... هبيت الفؤاد ، همه للوسائد
كفى حاجة الأضياف حتى يريحها ... عن الحى منا كل أروع ماجد
تراه بتفريج الأمور ولفها ... لما نال من معروفها غير زاهد
وليس أخونا عند شر يخافه ... ولا عند خير إن رجاه بواحد
إذا قيل من للمعضلات أجابه ... عظام اللهى منا طوال السواعد(٢)

وهكذا كان الفخر فى العصر الجاهلى إلى أن جاء الإسلام فقضى على تلك الذاتية التى هولت فى تصوير مفاخرها آنا عن طريق التغنى بالمفاخر الشخصية ، وآونة عن طريق ما للقبيلة من سطوة أو سلطان ، واعتبر الإسلام الردة إلى هـذه الأطر من الفخر عودة إلى الجاهلية التى اجتث الإسلام شأفتها ، واستأصل العوامل الدفينة التى كانت تحركها ، هنا بدأ شبح الذاتية يختفى ، لتحل محلها الرابطة المتينة فى العقيدة ، والأخوة فى الله حتى وجدنا « نهار بن توسعة » يهتف من أعماق أعماقه .

أبى الإسلام لا أب لى سواه ... إذا فخروا بقيس أو تميم

---

(١) ديوان (قيس بن الخطيم) ٤٣ وما بعدها ، وانظر : تاريخ آداب تاريخ آداب اللغة العربية ١٤٨/١ جرجى زيدان .

(٢) الفتوة عند العرب ٨٨ .

نعم ، جاء الإسلام فنظم شئون العرب الاجتماعية ، ووجه ما فيهم من استعداد مذخور بناءتوجيها خلع عليه الصبغة الإسلامية ولم يغفل الإسلام رهطا كانوا سادة الجاهلية بل أوجد أمامهم « الفرصة العظيمة التتجلى مواهبهم الخلقية والعقلية فى ميدان أوسع من ميدان العشيرة والقبيلة . وفى بيئة أرحب من الصحراء المجدبة ، ولولا ما كانوا عليه من خلق عظيم زاده الإسلام وتعاليمه رقة ، ووجهه إلى الصالح العام ما رأيت منهم القو اد الأفذاذ والسادة المحنكين والقضاة العدول والحكام القادرين يقفون فى جبين التاريخ وحدهم ، لأنهم يبهرون العالم بالأسس التى وضعوها والنماذج التى ضربوها على غير مثال سبق أو خبرة وتجربة إلا وحى الفطرة ، وهداية الأخلاق وإرشاد الدين (١) » .

وعندئذ رأينا فخرا فى العصر الإسلامى ، ولكنه ليس كسابقه ، يستوفز العصبية القبلية ويثير دخانها ، ولكنه الفخر الذى يلتصق بروح الإسلام وطبعه ، ولولا عوامل نجمت بعد ذلك على مسرح الحياة من انشقاق فى الصف الإسلامى لما عادت الفتنة جذعة ، تتغنى مرة أخرى بالقبيلة ، وتقحم ذكرها فى مناسبة أو غير مناسبة ... وكان طبيعيا بعد أن ظل الإسلام آفاق الوجود ، وأرجاء الحياة أن يلتحم شعراؤه مع الظروف الجديدة التى تكتنفه من غزوات إلى فتوحات كبرى ، امتدت من شبه الجزيرة العربية إلى مصر إلى العراق إلى الشام ، إلى فارس إلى أوربة مما أتاح الجو للشعراء وألهب قرائحهم بالفخر وأمدهم بالمعانى الرائعة التى ضمنوها أشعارهم .. وكان أن أخذت صور الفخر لدى الإسلاميين أطرا عكس الإسلام عليها نوره ووضاءته فأصبحت لا تسمع إلا فخرا يروعك ويأسرك لا أثارة فيه لذاتية أو لعصبية وإنما هو الإيمان بالدين الجديد ، والنصرة له . . وهذا « النابغة الجعدى » يقول لامرأته وقد خرج غازيا .

---

(١) ذاته ١٤٢ .

باتت تذكرني بالله فاعدة ... والدمع ينهل من شأنيهما سبلا
يابنة عمي كتاب الله أخرجني ... كرها وهل أمنعن الله مافعلا
فإن رجعت قرب الناس يرجعني ... وأن لحقت بربي فابتغي بدلا
ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرني ... أوضارعامن ضنى لم يستطع حولا(١)

وكان الشعراء ولاسيما الفرسان منهم تذهب نفوسهم حسرات حين تترامى إلى مسامعهم أن المشركين يعدون العدة لحرب المسلمين أو أنهم أو شكوا على الظفر بالمسلمين ، ولا يكتفي بعضهم بترديد أبيات من الشعر يستثير بها همم المسلمين ، أو يقولها تأساء وتعزية على ما فعل المشركون بالمسلمين ، بل كانت الرغبة الصادقة تدعه دعا إلى أن ينخرط في سلك الغزاة من المسلمين ، صوالا جوالا .. ولعل في موقف (أبي محجن الثقفي) ، هو يتحرق شوقا وتطلعا إلى أن يكون جنديا يحارب في صف المسلمين في معركة (القادسية) دليلا أي دليل على ما نقول ، فقد كان حبيسا وأعرب عن رغبته الدفينة التي تؤرقه وتنقض مضجعه في الذهاب إلى تلك المعركة في أبيات تلبس غلائل من العاطفة المشبوبة ، واللوعة الراسخة ... يقول فيها :

كفى حزنا أن تطعن الخيل بالقنا ... وأترك مشدودا علي وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وغلقت ... مغاليق من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا أهل كثير وإخوة ... فقد تركوني واحدا لا أخاليا
فلم سلاحي لا أبالك ، إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا(٢)

ولا يمكن أن نمر في هذه التقدمة لتحليل القصيدة دون أن ننوه بدور الأنصار الذين اضطلعوا به في نصرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) مما تجدد

---

(١) الشعر والشعراء ١/١٩٣
(٢) نفسه ١/٢٣١

فى مظانه من كتب السير والغزوات ، فهؤلاء كانوا الدرع الواقية للإسلام يهبون للذود عنه والمنافحة دونه ، ويحرصون على تهيئة المناخ للنبى صلى الله عليه وسلم فى نشر دعوته ، مما كان سببا فى علو كعبهم ونباهة شأنهم ، وينوه القرآن الكريم بدورهم الرائد فيقول : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (١) » .

فإذا بدا لحسان — وهو أنصارى — أو لغيره من الشعراء الإسلاميين أن يفخر ، أو أن يفاخر فماذا تراه قائلا ؟ وهو الذى كان النبى (ص) يستحثه على التصدى للمشركين وإذاعة مناقب المسلمين ، أتراه يدعو لعصبية نبذها الإسلام واطرحها وراءه ظهريا ، ذلك مالا يكون ، وبخاصة أنه عاش أمجادا خالدة صنعها الأنصار ، وسجلها التاريخ لهم فى صفحاته الناصعة فماله لايتغنى بها أو يفتخر ؟ وهل هو فى هذا إلا ناطق بما شهدته الأيام والأحداث ، فماذا عليه أن يذيع محامد قومه مادام ذلك فى إطار الإسلام وتوجيهات الرسول ، أو ليس ما يقوله فى هذا النطاق مما يفت فى عضد المشركين ، ويغضى عيونهم على القذى ، استمع إليه يقول فى « أصحاب القليب » وبدر :

فلاقيناهم منا بجمع كأسد الغاب من مرد وشيب
أمام محمد قد آزروه على الأعداء فى رهج الحروب
بأيديهم صوارم مرهفات وكل مجرب خاظى الكعوب
بنو الأوس الغطارف آزرتها بنو النجار فى الدين الصليب (٢)

إلى آخر هذه القصيدة التى تمثل معلما بارزا على درب الفخر عند « حسان بن ثابت » رضى الله عنه .

---

(١) الحشر (آية ٩)

(٢) ديوان حسان بن ثابت ١/٨٢ وانظر سيرة (ابن هشام) ٢/٢٠٥ بتغيير فى الرواية تقديم وتعليق الأستاذ طه عبد الرؤف سعد

تأملات فى القصيدة

١ – على التفعيلات العروضية التى تشكل بحر الطويل ، جاءت هذه القصيدة فى « الفخر » ، وتفعيلات « الطويل » كما يلى :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

مع ملاحظة أن عروض هذا البحر دائماً مقبوضة (والقبض : حذف الخامس الساكن) ، وقد تصح عروضه إذا جاء الضرب صحيحاً والبيت مصرعاً كما ذكر « امرؤ القيس » فى قوله :

ألاعم صبا أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وأما ضربه فيأتى صحيحاً آنا ومقبوضاً آنية ، ومحذوفاً طوراً (والحذف : حذف السبب) .

وقد بنى « حسان » قصيدته على حرف اللام التى نشأ عن إشباعها ألف كما ترى ...

وبحر الطويل يلتزمه الشاعر غالباً متى تطرق إلى تجربة ومعاناة يفرغ فيهما ما يراه مناسباً للموقف الذى يلون العاطفة عنده ، ولا سيما إذا جاءت تجربته طويلة النفس ، ولعل القدامى وقفوا على تلك الحقيقة حين أشاروا إلى أن بحر « الطويل يمتاز بالرصانة والجلال فى نغماته وذبذباته المنسابة الهادئة ، وهو أصلح من أجل ذلك لمعالجة الموضوعات الجدية التى تحتاج إلى طول نفس وروية، كالمديح والرثاء والفخر والعتاب والاعتذار ولذا شاع فى الشعر العربى بما يقارب الثلث ، وسموه « الركوب » لكثرة ما كانوا يركبونه فى أشعارهم(١) .

---

(١) مجلة الشعر « أكتوبر ١٩٧٧ » ص ٥٠ .

وحرف اللام المشبعة التى ترددت فى كل أبيات القصيدة ، واتخذه الشاعر دعامة لبنائها عليه من الأصوات التى تجود فى الوصف والخبر ، ويغلب عليه الفخر ، وإن جاءت فى التعريض والغزل والتذكر : والمبارزة والمدح والغارة ، والتسلية عن فراق الأحبة والحكمة(١) .

وواضح أن إشباع اللام مع نهاية كل بيت من أبيات القصيدة مما يتلاءم مع « التجربة الشعرية » ، إذ إطلاق الصوت على ما يقتضيه الإشباع وعدم انحباسه رغبة للشاعر ، حتى كأنه يرجو بذلك أن يتجاوز حدود السامعين ليسمع الفضاء الرحب بمفاخره العظيمة وخلاله الكريمة وأمجاده الرائعة وإذا كانت اللام ، صوتاً متوسطاً بين الشدة والرخاوة بالإضافة إلى أنها من أوضح الأصوات الساكنة فى السمع كالراء (٢) والنون فقد جاء هذا الإشباع ليبعد عنها شبح ما يداخلها من رخاوة . . . وربما كانت هذه الخصائص وراء نسبة شيوع اللام بين الأصوات الأخرى بمعدل ١٣٧ مرة فى كل ألف من الأصوات الساكنة (٣) .

وتأسيساً على ذلك يمكن القول بأن (حسانا) أصابت بقصيدته حظا من الجودة الفنية يتعلق بالوحدات الموسيقية التى تماوجت بها قصيدته من جهة وبوقوعه على روى هذه القصيدة من جهة أخرى .

٢ ــ والقصيدة ــ بعد إلقاء نظرة فاحصة ــ ذات موضوع واحد فليس فيها استطراد أو أغراض متعددة على غرار كثير من القصائد التى وردت فى الشعر العربى . وبخاصة فى العصر الجاهلى على أن مقدمتها أيضاً تتصل برحم واشجة إلى الغرض العام الذى خلصت القصيدة له .. ويلوح ذلك منذ الدخول إليها فى قوله :

---

(١) مجلة الشعر (أكتوبر ١٩٧٨) ص ٣٩ للدكتور (المختون) .

(٢) انظر الأصوات اللغوية د. ابراهيم أنيس ، ص ٦٤ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٩ .

ذريّ وعلمي بالأمور وشيمتي فما طائري فيها عليك بأخيلا

ثم ينبرى يعدد ما جبل عليه من خلائق :

ألم تعلمي أني أرى البخل سبة وأبغض ذا اللونين والمتنقلا ؟

وينتهى إلى تأكيد مدلولات معينة ، رآها فى قومه « الأنصار » فمضى يفاخر بها على النحو الذى ألمت به قصيدته ، ولست أدرى : ما الذى دفع الدكتور « وليد عرفات » إلى القول بأن هذه القصيدة من شعر الأنصار ثم نسبت فى وقت متأخر إلى « حسان » ؟ قد تكون الشبهة عنده أن القصيدة أو بالأحرى بعض أبياتها عرضت بالأمويين وساستهم فى قوله :

فلست بلاق ناشئاً من شبابنا وإن كان أندى من سوانا وأحولا

نطيع فعال الشيخ منا إذا سما لأمر ، ولا نعيا إذا الأمر أعضلا

وكما كان البيتان عنده مثار شبهة فى أن تكون القصيدة موضوعة على « حسان » كذلك كان قوله فيها :

نصرنا بها خير البرية كلها إماما ووقرنا الكتاب المنزلا

وما تلاه مدعاة إلى تأكيد ظنه . واستشف من ذلك أن القصيدة يمكن أن تكون قد أنشئت بعد وقعة (الحرة سنة ٦٣ هـ) ، وهى تلك الوقعة التى قتل فيها جمهرة غفيرة من أهل المدينة بعد أن استباح حماها « مسلم بن عقيل » قائد « يزيد بن معاوية » وجنده ثلاثة أيام ، وأكثروا فيها القتل والنهب والاعتداء ....

ولعله - فى ظنه - هذا يتابع القدامى من أمثال « ابن سلام » الذى صرح بذلك فى قوله عند الحديث عن شعراء القرى العربية :

وأشعرهم « حسان بن ثابت » ، وهو كثير الشعر جيده ، وقد حمل عليه مالم يحمل على أحد ، لما تعاضهت قريش واستبت وضعوا عليه أشعارا كثيرة ، لا تنقى(١) .

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ / ٢١٥

ولا ندعى أن شعر « حسان » كله صحيح ، فمن المعلوم أن أشعاراً نحلت عليه ، شأنه فى هذا شأن أمثاله من الشعراء ، بيد أن الاتكاء على ما سبق من شبه أثيرت فى شعره يمكن الرد عليها فيما يلى :

(أ) أن « حساناً » من الأنصار وأن له خئولة فى بنى النجار على ما سيأتى بيانه فى موطنه من هذه الدراسة ، فماذا عليه أن يذكر موقف قومه من تسويد الشباب ، وهو الذى اعتصرته الأيام خبرة ، ورأى رأى العين أن السيادة لا تكون إلا حيث الكياسة والتمرس وحسن الحيلة والتدبير وما إلى ذلك ، وهذه صفات قلما برزت مجتمعة فى شاب يلى أمر نفسه ، فكيف بمن يلى أمر قومه ويسومهم ؟

(ب) على أن « الجاهليين » كانوا يختارون شيوخاً لقبائلهم يتولون تصريف أمورها ، إيماناً منهم بما للخبرة من وزن فى سياسة الأمور وترجيح مصلحتها وذلك لا تأتى إلا من أكفاء يصدرون فيما يأتون أو يدعون عن روية وحكمة .

(ج) ثم ما الذى يريده الدكتور « وئيد عرفات » من « حسان ابن ثابت » حين يفاخر أو يشيد بمناقب قومه ومآثرهم ، أيترك الحديث عن نصرة النبى صلى الله عليه وسلم جانبا ، وهو الشاعر الذى أعده النبى (ص) على عينه ، وكان يدعو له بقوله : قل وروح القدس معك .

(د) وكيف يتسنى له أن يضطلع بمهمة الدفاع عن الإسلام ما لم يعرض صفحة لألاءة تنطق بمفاخر قومه ، ثم يعرض بجانبها صفحات الخزى والعار لأعداء الدعوة الإسلامية الذين يكيدون لها بوسيلة أو بأخرى . . . أليس فى هذا من الإعلام الدينى ما ينبغى لحسان وغيره من الشعراء الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن الإسلام باللسان أن يفعلوا .

(٥) وما كان اطراح قصيدة أو أخرى لشاعرما إلا حيث يقوى على رجحان ذلك ، أما أن يأتى اطراحها بما قد يكون كلاما عاما تواردت عليه أذهان الشعراء مرة ، وأعراف البيئة مرة أخرى فذلك هو محض التكهن الذى لايستند إلى حجة علمية مقبولة ، فإذا أضيف إلى ذلك أن ديوان (حسان) به كثير من القصائد فى الإشادة بالأنصار ومغامز قريش ، ومثل هذه القصائد — بهذا المنطق — يمكن أن يتسرب إليها الشك فماذا يبقى لـ « حسان » إذن وهو الشاعر الذى عرفته المجامع والأندية سيفاً مصلتاً ولساناً مسلولا على أعداء الله منذ أن هداه الله إلى الإسلام .

الحق أننا نرى القصيدة فيها روح « حسان » ومنطقه واتجاهه العام الذى اشتهر به فى كثير من قصائده الإسلامية ...

٣ — ولاتحتشد فى قصيدة (حسان) الصور البيانية ، على العهد بقصائد الشعراء الآخرين .. بل تجىء بصورة نادرة ، فمثال التشبيه الذى ورد فيها قوله :

فنحن الذرى من نسل آدم والعرى تربع فينا المجد حتى تأثلا

وكذلك :

إذا انبعثت من مبرك غادرت به توائم أمثال الزبائب ذبلا
فإن بركت خوت على ثفناتها كأن على حيزومها حرف أعبلا

ومن ألوان الاستعارة فى القصيدة قول « حسان » :

وإنى إذا ماالهم ضاف قريته زماعا ومرقال العشيات عيهلا

وأيضاً :

بنى العز بيتا فاستقرت عمـ'ده علينا فأعيا الناس أن يتحولا

وقوله :

إذا جمعوا جمعاً سمونا إليهمـو بهندية تسقى الذعاف المثمـلا

ومما جاء فى القصيدة من الكنايات :

إذا انصرفت نفسى عن الشيء مرة فلست إليه آخر الدهر مقبلا

ومنها :

وأغيد مختالا يجـــــر إزاره كثير الندى ، طلق اليدين ، معذلا

وكذلك :

فإن كنت لامتى ولا من خليقتى فمنك الذى أمسى عن الخير أعزلا

والقصيدة تخلو فى جملتها من أنواع الخيال ، ولعل سر ذلك يتجلى فى أن « الفخر » يقوم على أعمال تجسدت وترجمت فى دنيا الناس إلى مشاهدات والشاعر يحاول ماوسعه أن يضع المعانى مبسوطة بلا رتوش ، فإذا خطر له أن يوشيها ببعض البلاغات كان سبيله إليها المبالغة التى قد تتراءى فى أساليب القصر ، وذلك كما نراه يذكر :

وإنك لن تلقى لنا من معنف ولا عائب إلا لئيما مضللا
وإلا أمرأ قد ناله من سيوفنـا ذباب فأمسى مائل الشق أعزلا

ويقول :

« ما ذاك إلا أننا جعلت لنا أكابرنا فى أول الخـير أولا

فنحن الذرى من نسل آدم والعرى ... إلخ البيت . »

وأما معانيه — بعامة — فلا يلبسها ثوبا فضفاضا ، وقد يكون إسلامه وراء هذا المنزع فى قصائده ، ذلك لأن الإسلام يدعو إلى القصد والاعتدال وهو مبدأ كما يتأتى فى السلوك يتأتى فى المقولة ينطق بها شاعر أو إنسان .

٤ — والقصيدة تحمل طابعا إسلامياً يبدو فى التحلى بمكارم الأخلاق والعزيمة القوية التى لا يعرف الخور سبيلا إليها وتوقير الكبير وإسناد الأمر إلى من هو له أهل ، والدعوة إلى البذل والسخاء ومناصرة الضعفاء والوقفة بجانب

الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وتقديس القرآن ، والتعاطف مع الغريب وكلها انعكاسات إسلامية واضحة لايعوزها دليل أو برهان .

٥ – وألفاظ القصيدة تترقرق فيها المعانى ، وذلك بفضل الإسلام الذى أثرى كتابه المنزل فى ألسنة الشعراء ، فأكسبهم الوضوح والإشراق والعذوبة ، ومع ذلك فإن خضرمة « حسان » تقوده – أحياناً – إلى أن يعود إلى الصبغة الجاهلية للألفاظ ، فتبدو جاهلية جاسية ، ويتضح ذلك من قوله .

رأنى إذا ما الهم ضاف قريته زماعا ، ومرقال العشيات عيهلا

وقوله :

ولاجعبسا عيابة متهكمـــا ، علينا ، ولافها كهاما مفيلا

على أن فى القصيدة ألفاظا وأساليب قرآنية :

نصرنا وآوينا ، وفى القرآن الكريم : « والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً(١)»والكتاب المنزل ... إلى غير ذلك مما حوته القصيدة ؛

ويقينا لابد أن تتراوح ألفاظ القصيدة وأساليبها الفنية فتأتى مرة وقد اكتست بالصبغة الجاهلية ، ثم تأتى مرة أخرى تلبس الغلائل الشفيفة نتيجة التأثر بالإسلام، وليس من المقبول أن يعفى الإسلام مرة واحدة على كل موروثات الشاعر الجاهلية ، ولامن المعقول كذلك أن يرتد كلية إلى عهد جاء الدين الجديد فزلزله ، وأعاد بناءه على ماقضت به السماء .

وفى الحق أن الدكتورة « بنت الشاطىء » كتبت حول هذه القضية كلاما رائعاً نرى من تتمة الفائدة أن نقدمه .. تقول :

فظهور الإسلام كان بلاأدنى ريب حدثا جليلا حاسما فى تاريخ الإنسانية جميعاً ، لافى تاريخ العرب فحسب ، فلو صح «أن الأدب لم يتأثر بالإسلام إلا قليلا ، وقلما نسمع فى صدر الإسلام شعراً فيه خشوع وتبتل لله ، أو فيه مثالية الإسلام ومن جهة التعبير الفنى الخالص لانجد أى فرق بين شعر هذا الجيل وشعر الجاهليين » لو صح هذا لكان معناه أن الأدب وقف

(١) الأنفال آية (٧٤)

بمعزل عن ذلك الحدث الأكبر الذى هز أرجاء الجزيرة العربية وما حولها، ولشق علينا أن نجعل للأدب مكانا فى الحياة ، وقد شهد أعظم ثورة فى تاريخنا وتاريخ البشرية فوقف فى واد، والدنيا كلها فى واد. وكذلك الأمر بالنسبة إلى من جعلوا شعر هذه الفترة — صدر الإسلام — إسلاميا خالصاً لاتشوبه شائبة من الجاهلية نبتت فيها للشعر جذوره العميقة الراسخة واحتكمت تقاليدها الفنية فى أمزجة الشعراء وألسنتهم، فالقول بأن العرب تحللوا فجأة واعتادوه فى فهم القولى الذى يمثل التقاليد العريقة لما من طويل «لأنهم قد آثروا مغادرة هذا الماضى ، والانصراف عن أشباحه وخيالاته» فانصرفوا لذلك عن الشعر العربى الذى يمثله معناه أن الأدب تغير تغيراً حاسما بين يوم وليلة ، فانبت من جذوره وقطع كل صلة بينه وبين ماض طويل عاش فيه إلى أمس جد قريب(١) .

---

(١) قيم جديدة للأدب العربى ٨٣ .

« رؤية فى الشاعر وقصيدته »

لكى نكشف بعض الأبعاد فى شعر « حسان » نرى أن نلم بحياته إلمامة سريعة تعين على الغرض المقصود .

ويعرض « ابن قتيبة » له ، فيقول :

« هو حسان بن ثابت بن المنذر الأنصارى ، ويكنى « أبا الوليد » « وأبا الحسام »، وأمه « الفريعة » من الخزرج ،وهو جاهلى إسلامى متقدم الإسلام ، إلا أنه لم يشهد مع النبى صلى الله عليه وسلم مشهدا (١)

اتصل بملوك « غسان » بالشام فمدحهم بغرر قصائده ، ومما قاله فيهم.

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى ، يصفق بالرحيق السلسل
يغشون حتى ما تهركلابهم ... لايسألون عن السواد المقبل (٢)

وإذا كان (حسان) قد اختلف إلى بلاط « الغساسنة » قبل الإسلام ، فخلع عليهم أماديحه ، فقد كان — إلى هذا — منافحا عن قومه (الخزرج) بلسانه فى حروب دارت بينهم وبين « الأوس » فى الجاهلية ، مما كان سببا فى نشوب معركة شعرية وقعت بينه وبين « قيس بن الخطيم » و « أبى قيس بن الأسلت » من الأوس ، شحذ لسانه فيها ، على نحو ما أجاب به « قيس بن الخطيم » فى « يوم السرارة » ردا على قصيدته :

تروح من الحسناء أم أنت مغتدى ... وكيف انطلاق عاشق لم يزود !!

---

(١) الشعر والشعراء ١/٣٠٥ .
(٢) نفسه ١/٣٠٥

إذ قال « حسان » :

فلا تعجلن يا قيس واربع فانما ... قصاراك أن تلقى بكل مهند
حسام وأرماح يأيدى أعزة ... متى ترهم يابن الخطيم تبلد
ليوث لدى الأشبال نحمى عرينها ... مداعيس بالخطى فى كل مشهد
فقد ذاقت الأوس القتال وطردت ... وأنت لدى الكنات فى كل مطرد
تناغى لدى الأبواب حورا نواعما ... وكحل مآقيك الحسان بإثمد
نفتكم عن العلياء أم ايمة ... وزند متى تقدح به النار يصلد(١)

وظل كذلك إلى أن هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى « المدينة » فتخلص من ربقة الجاهلية ، إذ أسلم . ثم وقف نفسه على الإسلام حين أخذ شعراء المشركين من قريش يناصبون رسول الله العداء ، حتى لقد صح أن يكون « أول من يصلح له اسم شاعر إسلامى هو حسان ابن ثابت » الذى ربما هجا بعد الهجرة « الكفار على الأسلوب القديم حسبما كانوا هم يهجون النبى ، ومن هذا القبيل مثلا ماقاله فى الهذليين لما أسروا بعض المسلمين ، وباعوهم من قريش :

لو خلق اللؤم إنسانا يكلمهم ... لكان خير هذيل حين يأتيها
ترى من اللؤم رقما بين أعينهم ... كما كوى أذرع العانات كاويها
تبكى القبور إذا مامات ميتهم ... حتى يصيح بمن فى الأرض داعيها
مثل القنافذ تحزى ان تفاجئها ... شد النهار ويلقى الليل ساريها(٢)

وقد كان لحسان من قوة العارضة فى هجائه أعداء النبى صلى الله عليه وسلم ماتلمسه فى قوله عن « لسانه » : « مايسرنى به مقول أحد من العرب ، والله لو وضعته على شعر لحلقه ، أو على صخر لفلقه » (٣) .

---

(١) ديوان حسان ١/٢٦
(٢) تاريخ الآداب العربية ١٠٥ لكارلو نلينو .
(٣) الشعر والشعراء ١/٣٠٥

كما كان له من أمادحه فى الإسلام ما شهدت له الوفود بالفوقية والاستعلاء ، فقد جاء فى (سيرة ابن هشام) أن عطارد بن حاجب ابن زرارة وفد على النبى (ص) فى وفد من أشراف « بنى تميم » فيهم « الأقرع ابن حابس » و « الزبرقان بن بدر » و « عمرو بن الأهتم » لمفاخرة النبى (ص) ، وتقدم خطيبهم « عطارد » فخطب ، ودعا النبى (ص) « ثابت ابن الخزرجى » ليرد عليه ، ثم قام شاعرهم « الزبرقان بن بدر » فأنشد قصيدته التى يفاخر فيها :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا ... منا الملوك ، وفينا تنصب البيع

وبعث النبى (ص) لى « حسان بن ثابت » ولم يكن فى المجلس ، فلما جاء طفق يرد على « الزبرقان » :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع

إلى آخر ماقاله ، وآنذاك التفت « الأقرع بن حابس » إلى أصحابه قائلا لهم : « إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من أشعرنا ولأصواتهم أعلى من أصواتنا » ثم أسلموا جميعاً »(١) .

وهكذا كان موقفه من الدعوة الإسلامية وصاحبها ، ولا نود أن نسترسل فيما جاء عنه مما يتصل بهذه القضية ، فتستطيع أن ترجع فى ذلك إلى المصادر التى أفاضت فى هذه الناحية .

ويحاول بعض الرواة وهو فى معرض الحديث عن إسلامه أن يوازن بين شعره فى الجاهلية والإسلام مفضلا شعره فى الجاهلية ، وكأنما الإسلام حال دون الجوده التى كانت لشعره فى الجاهلية ، يذكر « الأصمعى » ذلك فيقول :

---

(١) راجع سيرة « ابن هشام » ٤/١٥٤ ومابعدها .

« الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فى الخير ضعف ، هذا » حسان ابن ثابت « فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره وقال مرة أخرى شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر فقطع متنه فى الإسلام لحال النبى صلى الله عليه وسلم »(١) .

وهذه قضية ينبغى مناقشتها لنعرف « أين حسان »من شعره فى الجاهلية والإسلام ؟

وقد يبدو من الكلام الذى رواه « الأصمعى » أن الإسلام يجافى الشعر ، ويكتئد رسالته ، وتلك قضيةمرفوضة ،فمعروف أن الرسول (ص) كان يشجع على قول الشعر ويحرض أصحابه عليه ، وهذا عبدالله ابن رواحة يقول :

« مررت بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى نفر من أصحابه فأصب القوم : ياعبدالله بن رواحة ، يا عبدالله بن رواحة ، فعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعانى فانطلقت إليهم مسرعاً فسلمت،فقال هاهنا فجلست بين يديه فقال ، كأنه يتعجب من شعرى : كيف تقول الشعر إذا قلته ؟ قلت : أنظر فى ذلك ، ثم أقول ، قال : فعليك بالمشركين(٢) .

وظل للشعر هذه السطوة وللشاعر تلك المكانة فى عهد النبى (ص) والراشدين من بعده،وإلافعلام حبس « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه « الحطيئة » حين هجا « الزبرقان بن بدر » ؟ .

ثم كيف يعوق الإسلام طريق الشعر ،فيضمر ويلين،ومعجزته الخالدة معجزة البيان واللسن متمثلة فى كتابه المنزل على رسول الله (ص) .

---

(١) الشعر والشعراء ١/٣٠٥ .
(٢) طبقات فحول الشعراء ١/٢٢٥ .

لايمكن إذن أن نقر « الأصمعى » على ما قال ، إلا إذا فهمنا ليونة شعره فهما آخر ، يبدو فى أن الليونة تعنى الرقة والعذوبة ، وهذا الفهم له ما يؤيده ، حيث تضافرت كل المعانى الإسلامية على التأثير فى شعره من قيم دينية ، نهل أفاويقها من فصاحة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، بالإضافة إلى أن (حسانا) كان له من وقته فى الجاهلية مايتيح له أن يجود شعره ، وأن يعيد النظر فيه ، فأما هو الآن بعد إسلامه وبعد أن نصب نفسه للرد على الوفود وعلى شعراء المشركين فلا وقت أمامه ، إذ كان شعره مرتجلا من وحى اللحظة كما أشرنا إلى ذلك فيما تقدم ، وطبيعى أن يأتى شعره فى الإسلام لا على غرار ماعرف به فى الجاهلية ، ولكن على نمط آخر ، يتأثر بكل هذه العوامل ، وبهذه النظرة إلى ماقال « الأصمعى » يمكن أن نسيغ الرأى ، ونقبل القضية .

على أن للدكتورة « بنت الشاطىء » ملحظا جميلا يؤيد ماذهبنا إليه ، وذلك إذ لاحظت أنه « لم يحل حسن إسلام « حسان » ومكانه من النبى الكريم دون نزعة جاهلية فى شعره ، فقد جاء فى مدحته الهمزية للرسول بأبيات فى الغزل ، والخمريات على مألوف الجاهلية رغم كراهية الإسلام لهذا الصنف من الشعر » .

وهذا الملحظ الذى رأته الدكتورة (بنت الشاطىء) لم يغب عن (أبى العلاء المعرى) قديماً فى شعر « حسان » حين سئل على لسان (ابن القارح) عن أبياته :

كأن سبيئة من بيت راس ... يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها أو طعم غض ... من التفاح هصره اجتناء
على فيها إذا ما النيل قلت ... كواكبه ، ومال بها الغطاء
اذا ما الأشربات ذكرن يوماً ... فهن لطيب الراح الفداء

إذ يقال له : « ويحك ، مااستحييت أن تذكر مثل هذا فى مدحتك رسول الله، ويجيب « حسان » قائلا : إنه أسجح خلقاً مما تظنون ، ولم أقل إلا خيراً (١) .

ولا معدى لنا أن نبين أن « حسانا » وصف بأنه أشعر أهل المدر ، وأن شعره تناول أغراضا عدة أهمها : الهجاء والمدح والفخر والرثاء والغزل ، والحكمة .

فأما هجاؤه فكان على ما ألمحنا إليه آنفا ، يتناول فيه المشركين بعامة وأشدهم على رسول الله بخاصة ، وكان هجاؤه لأحدهم لا يعدو أن يكون نفيا عن نسبه فضلا عما قد يعرض له من صفاته الخلقية والخلقية كالجبن واللؤم وقطع الرحم ، والفرار من ساحة المعارك إلى غير ذلك .

وتتراءى أماديحه فى الإسلام مقطوعات شعرية صغيرة ،وقلما أتت المدحة عنده فى الإسلام طويلة مستقلة ، بل كان يغلب على المدح عنده اختلاطه بالهجاء . . . ولم يقتصر « حسان » على مدح الرسول (ص) وإنما مدح كثيرا من أصحابه (صلى الله عليه وسلم) وخلفائه ، ومغاوير المسلمين الذين أبلوا بلاء حسنا فى المعارك التى دارت رحاها بينهم وبين أعداء الإسلام ، وتقرأ ديوانه فيواجهك كثير من شعره يدور فى هذا الفلك مثل قوله فى مدح « عمرو بن الحارث الغسانى » :

لله در عصابة نادمتهم ... يوما بجلق فى الزمان الأول
يمشون فى الحلل المضاعف نسجها ... مشى الجمال إلى الجمال البزل
الضاربون الكبش يبرق بيضه ... ضربا يطيح له بنان المفصل
والخالطون فقيرهم بغنيهم ... والمنعمون على الضعيف المرمل (٢)

وفخره كثيرة ألوانه ، فنهما يكون بالإشادة بما لقومه الأنصار من مفاخر ، ومنه ما يكون بذكر مآثر الخزرج أو رهطه بنى النجار ،وأحيانا ينوه بصفاته هو من فصاحة ، وشعر ذائع ، أو شجاعة منقطعة النظير كقوله :

---

(١) رسالة الغفران ١٥٠

(٢) ديوان «حسان» ٣٠٢/١٩ .

وقد غدوت على الحانوت يصبحنى
من عانق مثل عين الديك شعشاع
تغدو على وندمانى لمرفقه
نقضى اللذاذة من لهوا وأشماع
إذا نشاء دعوناه فصب لنا
من فرغ منتفخ الحيزوم ركاع
وقد أرانى أمام الحى منتطقا
بصارم مثل لون الملح قطاع
تحفز عنى نجاد السيف سابغة
تغشى الأنامل مثل النهى بالقاع
فى فتية كسيوف الهند أوجههم
نحو الصريخ إذا ما ثوب الداعى(١)

ويذكر « المبرد » فى « الفاضل » أن الرسول « ص » حين دخل المدينة اجتمعت عليه الأنصار ، وأنشد « حسان » الأبيات الأخيرة ابتسم الرسول عليه الصلاة والسلام ، فظن أن تبسمه لما ترامى إلى سمعه (ص) من اتصافه بالجبن ، ولكن « ابن الزبير » يذكر أن « حسانا » لم يشهد معركة إسلامية ، فيشارك فيها لأن أكحله قد قطع ، ولعله — فى هذا — يذكر قوله :

أضر بجسمى مر الدهور وخان قراع يدى الأكحل

ويروى عن (الأصمعى) فيما يذكره (المبرد) أنه قال : الدليل على أن (حسانا) لم يكن جبانا من الأصل أنه كان يهاجى خلقا فلم يعيره أحد منهم (٢) .

ولعل رؤية « الأصمعى » فى ذلك مما تستريح إليه النفس ويطمئن

---

(١) ذاته ١/٣٠٢ .
(٢) انظر : الفاضل ١٢ تحقيق الميمنى (ط : دار الكتب ١٩٥٦) .

إليه العقل ، ذلك أن الإسلام لا يطبع على الجبن واحداً حسن إسلامه وكان شعره ذا حرارة تعكس ما فى أعماقه . . .

وأما رثاؤه فله رنة حزينة وبخاصة حين يرثى المقدمين فى الإسلام السابقين إليه ، من أمثال « خبيب » الذى قال فى رثائه :

لو كان فى الدار قوم ذو محافظة ... حامى الحقيقة ماض خاله أنس
إذن حللت (خبيب) منزلا فسحا ... ولم يشد عليك الكبل والحرس
ولم يضقك إلى التنظيم زعنفة ... من المعاشر ممن قد نفت عدس
صبرا خبيب فإن القتل مكرمة ... إلى جنـــان نعيم يرجع النفس
دلوك غدرا وهم فيها أولو خلف ... وأنت ضيم لها فى الدار محتبس(١)

ومن شعره الذى ذهب مذهب الحكمة قوله .

وإن امرأ أمسى وأصبح سالما ... من الناس إلا ما جنى لسعيد(٢)

ويستجاد له فى شعره هـــذا البيت فقد قالوا « إنه أحكم بيت قالته العرب » كذلك استجادوا قوله فى « الفخر » :

وبيوم بدر إذ يرد وجوههم ... جبريل تحت لوائهم ومحمد(٣)

ونرى ضروريا أن نختم هذه العجالة بما كان لحسان بن ثابت رضى الله عنه من حس نقدى ، احتكم إليه (عمر بن الخطاب) حين « هجا » « الحطيئة » الزبرقان بن بدر « ومدح » « بغيض بن عامر » بقصيدته التى ما إن بلغ فيها :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

---

(١) الديوان ١/٢٢٧ .
(٢) الشعر والشعراء ١/٣٠٨ .
(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ٦/١٣٢ .

حتى قال « عمر » للزبرقان بعد أن استعداه عليه : أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا ؟ ثم أرسل إلى « حسان بن ثابت » فسأله عن ذلك ، فقال لم يهجه ، ولكن سلح عليه ، فحبسه عمر وقال : يا خبيث : لأشغلنك عن أعراض المسلمة(١) .

أليس ذلك دليلا على بصر « حسان » بالشعر ، ونفاذ نظرته فيه ؟

• • •

(١) انظر الشعر والشعراء ١/٢٢٧ وما بعدها .

القصيدة الثانية

« الدامغة »

لـ « جرير »

— ٢ —

١ — أقلى اللوم عاذل والعتابـا وقولى إن أصبت لقد أصابا
٢ — أجدك ما تذكر أهل نجـد وحبا طال ما انتظروا الإيابا؟
٣ — بلى فارفض دمعك غير نزر كما عينت بالسرب الطبابـا
٤ — وهاج البرق ليلة أذرعـات هوى ما تستطيع له طلابـا
٥ — فقلت بحاجة وطويت أخرى فهاج على بينهما اكتئابـا
٦ — ووجد قد طويت يكاد منـه ضمير القلب يلتهب التهابـا
٧ — سألناها الشفاء فما شـفتنا ومنتنا المواعد والخلابـا
٨ — لشتان المجاور دير أروى ومن سكن السليلة والجنابا
٩ — أسيلة معقد السمطين منها وريا حيث تعتقد الحقابا
١٠ — ولا تمشى اللئام لها بسر ولا تهدى لجارتها السبابـا
١١ — أباحت أم حزرة من فؤادى شعاب الحب إن له شعابا

* * *

تحليل المفردات

١ — العذل : اللوم ، والعاذل : اللائمة ، وهو غير العزل الذى اعتزل الناس ، يقول « عبد قيس بن خفاف »(١) :

ودع القوارص للصديق وغيره كيلا يروك من اللئـام الـعزل (٢)

---

(١) الأصمعيات ٢٢٩.

٢ – الإياب ، والأواب ، والأوبة ، والأيوب مصدر الفعل آب : رجع ، ويقال : آب الغائب : رجع إلى مستقره ، قال « عبيد بن الأبرص » :

وكل ذى غيبـة يئـوب   وغائب الموت لا يئـوب(١)

٣ – ارفض الدمع : ترشش وسال ، وارفض الشيء : تفرق وذهب ، وعين الوعاء : صب فيه الماء لينظر من أن يسيل فيسده ، والسرب : السيلان ، والطباب : الطبة بضم الطاء ، وتشديدها ، والطبابة بالكسر : السير يكون فى أسفل القربة بين الخرزتين .

٤ – أذرعات : موضع فى بلاد الشام .

٥ – الاكتئاب والكأب والكآبة : الغم وسوء الحال والانكسار من حزن .

٦ – الوجد : يقال وجد عليه يجد وجداو موجدة : غضب ، ووجد به فى الحب بكسر الماضى : عشقه ، وكلف به .

٧ – الخلاب : قول الباطل ، والكذب فى المواعيد ، ومنه جاء قولهم : برق خلب : (خادع يغرى المطر ، ثم يخلف) يقول «أبو الأسود الدؤلى» : وهو مما يستجاد له :

لا يكن برقك برقا خلبـا   إن خير البرق ما الغيث معـه(٢)

٨ – دير أروى ، والسليلة ، والجناب : مواضع .

٩ – السمطين : مثنى سمط : خيط النظم ، وقلادة فيها طول ، والأسيل (كأمير) : الأملس المستوى ، ومن الخدود : الطويل المسترسل السهل اللين ، يقول «دريد بن الصمة» يصف فرسه :

سليم الشظى عبل الشوى شيخ النسا   طويل القرا نهـدأ سيل المقـلد

---

(١) المعجم الكبير ٥٩٣

(٢) الشعر والشعراء ٢ / ٧٣٠ .

ويروى : « أسيلة معقد القرطين (١) » واعتقد : عقد .

١٠ – يروى فى منتهى الطلب ، ولا يمسى اللئيم .

١١ – أم حزرة : « امرأة الشاعر » ، وشعاب الحب : جمع شعبة : الطائفة من الشىء .

• • •

تصور هذه الأبيات « جريرا » وهو يطلب إلى صاحبته ألا تفرط فى العتب عليه ، ظنا منها أنه ضرب صفحا عن الذكريات التى كان يستعذبها ، فإن ذلك مما يسوءه ويؤلمه . وهل فى وسعه أن يتخفف عن ذكرياته وما تزال مواجده وأشواقه تلح عليه ؟ أفلا يكون الرفق به أولى ، ثم كيف خفى على صاحبته نبض الهوى الذى يعيش دفين جوانحه حتى تلومه ، ولا تنصفه فى موقف من المواقف ينطق بحاله معها ويترجمها عن مكنون ضميره ، ولواعج شوقه ، وخلجات إحساسه وهو الذى تسلطت عليه الذكرى . وهاجه الشوق فراح معه ينهل فى غزارة ، أشبه مايكون بالماء يسيل فى مزادته ، لما يبدو فيها من ثقوب .

وما ظنك بمن يتمثل الذكرى فى برق يلتمع فيعيش حالة من حالات الهوى الجامح ، يستشعر وقعه وسطوته واستبداده ، ولاسيما حين يرى لسانه معقولا عن الإفصاح عما يجد فى نفسه ، وكأنما عناه ، « جميل » بقوله :

وإنى لينسينى لقاؤك كلما ذكرتك يوما أن آتيك مابيا

وتثور هذه الدفائن بين مشاعره ، ويغشاه بسببها أمارات الكآبة والغم وينثال الكرب عليه فيفدح إحساسه . وطالما عللته بالوصال ، وكم ظل يترقب الموعد ، أملا فى أن ينقع غلته أو يشفى صداه دون جدوى أو طائل ، وماله لايكون على تلك الصورة ، وهو الرجل الذى يعشق فى صاحبته كل

---

(١) (انظر لسان العرب : عقد) ٤/٢٨٨

جميل من نضارة ونعومة وعبير ، إلى عفة فى الخلق واللسان ، فلسانها يقطر حياء .. وكلماتها يلفها الخفر ، فليس فيها كلمة نابية ، ومن ثم لا يستطيع اللئيم من الناس أن ينقل عنها مايشين ويخدش الحياء ، ومن كان على هذه المثابة وتلك الخلال فجدير أن يحتل من القلب منزلة بارزة ، وأن يعيش ويسكن بين سويدائه وشغافه ، وهل يطمع محب واله أو يشوقه فى امرأة غير هذه الصفات ؟!!

١٢ – متى أذكر بخوربى عقال   تبين فى وجوههم اكتئابا
١٣ – اذا لاقى بنو الوقبان غما   شددت على أنوفهم العصابا
١٤ – أبى لى ما مضى لى فى تميم   وفى فرعى خزيمة أن أعابا
١٥ – ستعلم من يصير أبوه قينا   ومن عرفت قصائده اجتلابا
١٦ – أثعلبة الفوارس أو رياحا   عدلت بهم طهية والخشابا
١٧ – كأن بنى طهية رهط سلمى   حجارة خارىء يرمى كلابا
١٨ – رأين سواده فدنون منه   فيرميهن أخطأ أو أصابا
١٩ – فلا وأبيك مالا قيت حيا   كير بوع إذا رفعوا العقابا
٢٠ – وما وجد الملوك أعزمنا   وأسرع من فوارسنا استلابا
٢١ – إذا حرب تلقح عن حيال   ودرت بعد مريتها اعتصابا

* * *

١٣ – الوقبان : الأحمق والنذل الدنىء ، ويقال : أنه لوقب أى أحمق (١) ، والعصاب يعنى عصاب الغمامة التى تشد على أنف الناقة إذا أريد لها أن تعطف على غير ولدها ، فتحول العصابة دون شمه .

١٤ – فرعا خزيمة : كنانة وأسد .

---

(١) كتاب الجيم ٣/٢٩٥

١٥ ــ القين : العبد ، والحداد ، يقول ضابىء بن الحارث البرجمى :

يساقط عنه روقة ضارياتها سقاط حديد القين أخول أخولا(١)

١٦ ــ ثعلبة الفوارس وريح : من قوم الشاعر (جرير) ، وطهية : امرأة مالك بن حنظلة ، والخشاب : أولا دمالك من غير طهية .

١٧ ــ الخرء بالضم : العذرة ، وفعله خرىء كسمع .

١٨ ــ سواده : الضمير يعود على (الخارىء) أو شخصه ، والسواد : المال الكثير ، والمقصود : الشخص .

١٩ ــ العقاب : المراد بها الراية التى ترفع فى القتال ، فإذا سقطت دل ذلك على هزيمة من يحملها .

٢١ ــ اللقح واللقاح : حمل الولد ، يقال : لقحت الناقة ، والإلقاح جعلها كذلك ، يقول « زهير بن أبى سلمى » من معلقته :

وما الحرب إلا ماعلمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم (٢)

ويأتى جرير إلى بنى عقال ومايتصفون به من خور وضعف ، يعتريهم فيذكر أن الهموم تنال منهم كل منال حين يطير ذكره فى أوساطهم ، وتذهب نفوسهم غما يبدو على محاياهم ، ولكثرة ما يناله منه تستحيل سخرية « جرير » بهم عصابا يشدها على أنوفهم ، سمة تسمهم وتصمهم فى آن واحد ، وإذ كان ذلك أمرا سائغا لاعضاضة فيه بالنسبة إلى هؤلاء الذين

---

(١) الأصمعيات ١٨٣

(٢) شرح ديوان (زهير بن أبى سلمى) ١٨ وما بعدها

ينتمون بسبب إلى الفرزدق والراعى فإن مكانه فى قومه يربأ به عن أن يذكر بمعابة أو يرمى بذلة ، وأين الثرى من الثريا ؟!! فماضيه فى «تميم» شاهد له بكل مكرمة ، وكذا مقامه فى « كنانة » و « أسد » .

وهل هناك من يدانيه فى سؤدد أو قول ؟ ها هو ذا الماضى بما ينبئ عنه ، وتلك قصائده التى أسمعت كلماتها الزمن ، كلاهما مما يضمن له حسن الأحدوثة وطيب الذكر والمجد الخالد ، أو يصح — فى عرف بعد ذلك — أن تنقلب الموازين فتعدل طهية والخشاب ثعلبة الفوارس أو رياحا ؟ لا يقول بذلك أو يتجاسر على ادعائه إلا مأفون أخرق ، فطهية وبنوها يمثلون شيئاً حقيراً عليه من الأدناس ما يزيده حقارة وخسة ووضاعة ، ولاينبغى أن يذكر هؤلاء مع قوم جرير « بربوع » فى قران ، أو سياق ، وأولئك يمثلون الفروسية والبطولة بكل أبعادها وآفاقها فى الحرب والضرب ، والجهاد والجلاد ، بهذا تشهد الملوك وتنطق المفاخر التى رأوها رأى العين ماثلة تشرق أمامهم بأحرف بارزة من نور فى أثناء تفاقم الحرب وشدتها ، ولأواثها واحتدامها .

٢٢ — ونحن الحاكمون على قلاخ ... كفينا ذا الجريره والمصابا

٢٣ — حمينا يوم ذى نجب حمانا ... وأحرزنا الصنائع والنهـــايا

٢٤ — لنا تحت المحامل سابغات ... كنسج الريح تطرد الحبابا

٢٥ — وذى تاج له خرزات ملك ... سلبناه السرادق والحجابا

٢٦ — ألا قبـــح الإله بنى عقال ... وزادهم بغدرهم ارتيابا

٢٧ — أجيران الزبير برئت منكم ... فألقوا السيف واتخذوا العيابا

٢٨ — لقد غر القيون دما كريما ... ورحلا ضاع فانتهب انتهابا

٢٩ — وقد قعست ظهورهم بخيل ... تجاذبهم أعنتها جذابا

٣٠ — علام تقاعسون وقد دعاكم ... أهانكم الذى وضع الكتابا

* * *

٢٢ ــ قلاخ : موضع باليمين ، شهد وقعة « نزل فيها على حكم بنى رياح بن يربوع وولده ، ويروى البيت : على عكاظ ، وذلك أن الرئيس من بنى تميم كان يجمع لنفسه الموسم والقضاء معا ، بعد أن كان يتولاهما رجلان ، ومن هؤلاء : سعد ، ومالك ثم الأضبط بن قريع ، ثم سفيان ابن مجاشع ، ثم الأقرع بن حابس(١) .

والحريرة : الذنب والجناية .

٢٣ ــ ذى نجب : يوم كان لبنى يربوع وحدهم دون بنى حنظلة ، والحمى : ما يجب على الإنسان حمايته من مال وعرض ... إلخ . والصنائع : جمع صنيعة : المعروف ، والنهاب : الغنائم : واحدها : نهب .

٢٤ ــ المحامل : جمع « محمل » : ما يحمل به السيف ، والسابغات : جمع سابغة : الدرع الطويلة ، قال تعالى فى سورة « سبأ » « أن اعمل سابغات وقدر فى السرد»(٢) .

والحباب : ما يرى على صفحة الماء فقاقيع إذا حركته الريح .

٢٥ ــ السرادق : معروف ، والبيت المسردق : أن يكون أعلاه وأسفله مشدوداً كله ، يقول « سلامه بن جندل » :

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه صدور الفيول بعد بيت مسردق(٣)

٢٧ ــ جيران الزبير : قوم الفرزدق الذين أجاروا « الزبير » وخفروا ذمته ، والعياب ، جمع ، جمع عيبة : صندوق الثياب ، والمعنى : لستم فى أهل القتال فأنتم نساء .

---

(١) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ٢ /٨١٥ تحقيق د. نعمان محمد أمين طه .
(٢) آية ١١ .
(٣) الأصمعيات ١٣٧ .

٢٩ ــ قعست ظهورهم بخيل : يريد أنهم انهزموا لجبنهم وخورهم وتقهقرهم بينما كانت خيولهم تريد أن تتقدم ، والأعنة : جمع عنان (بكسر العين) لجام الفرس ويجمع على عنن (بضم أوله وثانيه) كذلك.

٣٠ ــ تقاعسون : تتقاعسون : مضارع حذفت إحدى تاءيه بمعنى التأخر والإحجام والرجوع إلى خلف يقول « العباس بن مرادس » :

وكنا إذا ما الحرب شبت نشبها ونضرب فيها الأبلخ المتقاعسينا(١)

* * *

ويمضى جرير يستعرض مفاخره ، فيذكر ما كان لقومه فى « قلاخ » حيث انفردوا بالتمتع بالمناصب المرموقة يستأثرون بها ، لا أنانية منهم أو ذاتية ، ولكن لأنهم أحرياء بأن يكونوا فى الصدارة ولم لا ؟ وهم الذين كان لهم صولة فى يوم « ذى نجب » استأهلوا عن طريقها أن تكون الغلبة لهم ، بعد أن صنعوا كثيرا من الخوارق والأعاجيب فى ميدان الحرب ، وذلك كله لخنكتهم الحربية وخبرتهم الفائقة ، ولو رأيتهم فى حال الأهبة لراعك منهم حيطتهم وذكاؤهم وقد لبسوا الدروع السابغة تحت حمائل السيوف ، يقينا منهم بالاستماتة والتفانى والقتال حتى آخر رمق أو نفس يتردد ، ولهذا كنت ترى الملوك تندك عظمتهم لوقتها وتنثل عروشهم للحظتها ، كان ذلك أمرا طبيعيا ، يملى على هؤلاء الملوك أن يستساموا للهزائم المرة فى تلك المعارك ، فهذا ما قاموا به فى المعارك الحالية أو تظن أن الفرزدق وقومه يستطيعون أن يواجهوا ويصمدوا ؟ تبا لهم من قوم لا يعرفون إلا العذر مذهبا ، هؤلاء ، أخلق بهم أن يلقوا السلاح وأن يبحثوا عن الغوانى لتوافق الأهواء والطبائع .

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

---

(١) ذاته ٢٠٧ . أ

على أن هؤلاء ليسوا مفطورين على الحرب ، فمعاركهم تتجلى فيها الروح الانهزامية والتقهقر أمام محاربيهم بما يسجل عليهم مهانة دونها كل مهانة ، يتلقفها جيل عن جيل ، ويتحدث بها خلف عن سلف .

٣١ ــ تعشوا من خزيرهم فناموا ولم تهجع قرائبه انتحابا
٣٢ ــ أتنسون الزبير ورهط عوف وجعثن بعد أعين والربابا
٣٣ ــ ألم تر أن جعثن وسط سعد تسمى بعد قضتها الرحابا !!
٣٤ ــ تحزحز حين جاوز ركبتيها وهز القزبرى لها فغابا
٣٥ ــ إذا سعلت فتاة بنى تميم تلقم باب عضرطها الترابا
٣٦ ــ ترى برصا بمجمع إسكتيها كعنفقة الفرزدق حين شابا
٣٧ ــ وهل أم تكون أشد رعيا وصرا من قفيرة واحتلابا ؟
٣٨ ــ ومقرفة اللهازم من عقال يغرق ماء نخبتها الذبابا
٣٩ ــ تواجه بعلها بعضار طى كأن على مشافره حبابا
٤٠ ــ وخور مجاشع تركوا لقيطا وقالوا حنو عينك والغرابا
٤١ ــ وأضبع ذى معارك قد علمتم لقين بجنبه العجب العجابا
٤٢ ــ فإن مجاشعا جمعوا فيا شا وأستاها إذا فزعوا رطابا
٤٣ ــ ولا وأبيك ما لهم عقول ولا وجدت مكاسرهم صلابا
٤٤ ــ وليلة رحرحان تركن شيبا وشعثا فى بيوتكم سغابا
٤٥ ــ رضعتم ثم سال على لحاكم ثعالة حيث لم تجدوا شرابا
٤٦ ــ تركتم بالوقيط غضارطات تردف عند رحلتها الركابا
٤٧ ــ لقد خزى الفرزدق فى معد فأمسى جهد نصرته اغتيابا
٤٨ ــ ولافى القين والنخبات غما ترى لو كوف عبرته انصبابا
٤٩ ــ أتوعدنى وأنت مجاشعى ترى فى خنث نخبته اضطرابا

* * *

٣١ – الخزير : عصيدة أو مرقة تتخذ من النخالة ، أو شبه عصيدة بلا لحم . ويذكرون أن ، (قصيا) كان إذا ذبحت ذبيحة أو نحرت نحيرة بمكة أتى بعجزها فصنع منه خزيرة ، وهو لحم يطبخ ببر فيطعمه الناس ، فسميت قريش بها سخينة . وعيرت بذلك ، ولعل (جريرا) هنا يشير إلى ما فعلت بنو مجاشع من أكلهم الخزير ، دلالة على الضعة والهوان ؛ والهجوع : النوم .

٣٢ – الزبير : هو الزبير بن العوام . وكان قد قتل بعد أن استجار بهم فلم يجيروه ، والرهط من ثلاثة أوسبعة إلى عشرة أو ما دونها : أو قوم الرجل وقبيلته ، وهو المقصود هنا ، وعوف : هو بن القعقاع بن معبد ابن زرارة ، وجعثن : ابنة غالب أخت الفرزدق ، وأعين : هو أعين المجاشعي الذى بعثه على بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى البصرة فلقى مصرعه بها . وقد أصهر إليه « الفرزدق حين تزوج ابنته « النوار » والرباب : مجاشعية .

٣٣ – القضة . الثقب ، وهو يشير بذلك إلى قصة أشيعت عن (جعثن). مؤادها أنها تعرضت للاعتداء عليها – إذ أرسل بنو منقر « عمران ابن مرة » بغية أن يعرض لها أيام « أن كان « سعيد بن العاص » واليا على المدينة ، وفى أثناء خروج « جعثن » اختلس « عمران » اللحظة فضرب بيده على نحرها ، فصاحت ، مضى لوجهته ، وعير الفرزدق » بذلك .

٣٧ – يروى البيت : وهل أم تكون أشد فطرا : والفطر : مسح الضرع ليدر . وقفيرة : هى قفيرة بنت سكين من (دارم) وكانت أمها أمة وهبها كسرى لزرارة ، فوهبها زرارة ، لهند بنت يثربى بن عدس

---

(١) انظر الشعر والشعراء ١/٣٣٢ .

فوثب آخو زوجها وهو (سكين بن حارثة بن زيد) على الأمة فأحبلها ، فولدت له قفرة أم صعصعة(١) .

٣٨ – عقال : فرع من سفيان الذى ينتهى إلى (مجاشع) ، وقد تفرعت (عقال) بدورها فرعين : حابس ، وناجية ، ومن (حابس) كان (الأقرع) الصحابى الذى شهد فتح مكة ، ومن ناجية كان (صعصعة) ومن (صعصعة) : « غالب » . وماء النخبة : سلحها والنخبة : الدبر ، واللهزمة بكسر الهاء : المرأة السمينة ظهور الشدقين ويروى البيت .

وسوداء المحابس من عقال تفرق من مشيمتها الثيابا

٣٩ – العضار طى : الفرج والرخو ، والحباب : ماتجمع من الزبد من ألبان الإبل .

٤٠ – لقيط : هو لقيط بن زرارة ، وكان قد قتل يوم « جبلة » وحنو العين : ناحيتها أو هو العظم الذى تحت الحاجب من الإنسان وفى البيت تهكم وسخرية لاذعة .

٤١ – العجب العجاب : كناية عما تردد عند العيب من زعم فحواه : أن الضبع كانت تقترب من القتيل لتحتك به .

والبيت كسابقه ، يسيل استخفافا بما كانت عليه مزاعمهم – وذو معارك وجنب : موضعان .

٤٢ – الفياش : فخر الرجل بما ليس فيه ادعاء ، ويقصد بقوله وأستاها رطابا إذ افزعوا : أنهم إذا فزعوا سلحوا .

٤٤ – رحرحان : موضع كانت فيه معركة بين تميم وعامر ، انجلت عن هزيمة « تميم » يقول « جرير » .

---

(١) انظر : ذاته ١/٤٧١

ويرحرحان تخضخضت أصلاؤكم   وفزعتم فزع البطان العزل(١)

والشيب . جمع أشيب . الطاعن فى السن ، والشعث ، واحده أشعث : المغبر الرأس ، والسغاب . مفرده . سغب وسغبي . جائع وجائعة ، يقول تعالى فى سورة (البلد) « أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة(٢) »

٤٥ – ثعالة : رويئة الدابة ، وفى البيت إشارة إلى مازعمه (جرير) فى هجائه (مجاشعا بارتضاع الفيشل) .

٤٧ – العصنرط ، اللئيم ، والخـادم على طعام بطنه ، وردفه كسمعه ونصره . تبعه كأردفه ، وأردفته معه . أركبته . الوقيط . يوم من أيامهم ، اجتمعت فيه اللهازم (قيس – وتيم اللات بن ثعلبة من بكر) لتغير على تميم ، وقد أسفر عن انتصار « ربيعة » ووقوع جماعة من رؤساء (تميم) فى الأمر ، ومما قاله جرير للفرزدق عن هذا اليوم .

أحسبت يومك بالوقيط كيومنا   يوم الغبيط بقلة الأوحال *

٤٧ – فأمسى جهد نصرته اغتيابا . بمعنى أصبح اغتيابه هو السبيل الوحيد لانتصاره لنفسه .

٤٨ – القين : يعنى به : (الفرزدق) ، والنخبات : الجبناء من الرجال ، ويقال . وكف الدمع : قطر ، والعبرة . الدمعة يقول (امرؤ القيس) .

أمن ذكر نبهانية حل أهلها   بجزع الملا عيناك تبتدران

فد معهما سكب وسح وديمة   ورش وتوكاف وتنهملان (٣)

٤٩ – النخبة . سبق بيانها فى البيت (ومقرفة اللهازم... إلخ) والخنث الشرج ، ويروى .

---

(١) ديوان (جرير ٢/٩٤٣)

(٢) الآيتان ١٤ و ١٥

انظر جرير ، حياته وشعره ٩٢

(٣) ديوانه ٨٨

ارى فى خنث لحيتك اضطرابا

* * *

ويوالى جرير على العهد به الهجاء الفاتر ، والنهكم الفارص ، فيذكرهم بمطعومهم الذى كانوا على موائده يتهافتون ، إنه (الخنزير) ولا شىء سواه ، وليته أشبعهم ، لكن المصيبة أن تركوا خلفهم أناسا يتضورون جوعا ومسغبة ، ينتحبون من شدة الجوع ولا من مجيب غير الغطيط الذى تردد صداه فى جنبات المكان حين غلبهم النوم ، فراحوا فى سبات عميق والغريب أن هؤلاء يناءون وملء جفونهم الكرى ، ينسون مواقفهم المخزية والمشاهد الأليمة التى ذهب ضحيتها من القتلى مايعرفون ، وما قصة (الزبير ابن العوام) عنهم ببعيد يوم أن استجار بهم فلم يهب لنجدته أحد ، وتركوه حتى خر صريعا فى الميدان ، ولو أن ذلك هو الموقف الوحيد لكان لهم فيه مندوحة ، ولكن هكذا ديدنهم ، وتلك طبيعتهم ، فقد خذلوا (أعين المجاشعى) الذى لقى مصرعه هو الآخر بالبصرة ، ولم يحركوا ساكنا .

سلسلة من المخازى صنعوها على أعينهم ، يزيدها ضغثا على إبالة — كما يقال — أن الشرف شىء لايعنيهم ، فهو خلق غير ذى بال ، وإلا فكيف يفسرون موقفهم من (جعثن) أخت الفرزدق ، وقد تعرض لها عمران بن مرة رسول بنى منقر ردا على ما أراد (الفرزدق) أن يقوم به ، حين سول له شيطانه أن يعتدى على جارية منقرية ، ولما أن انتهرته هجاها بقوله .

وأهون عيب المنقرية أنها شديد ببطن الحنظلى لصوقها

فأين هم فى هذه المواقف الدامية التى تخدش العرض ، وتسىء إلى السمعة وتلطخ الشرف والمروءة ؟

ويأبى (جرير) إلا أن يسف فى هجائه على نحو ننزه القلم عن الخوض فى رسم صورة له ، فالأبيات من الرابع والثلاثين إلى التاسع والثلاثين) تتردى

فى هوة من الإفحاش والبذاءة ، يدفع إليها التهاجى الذى وقع بين (جرير) والفرزدق من جهة ومحاولة كل منهما أن يفحم الآخر ، وأن يحرز قصب السبق من جهة ثانية ، ولذا لم يجد (جرير) حرجا فى ذكر الأبيات ولم يتورع عما يسىء إلى الأخلاق بوجه عام .. ويستمر على الطريقة عينها إلى أن يعير قوم (الفرزدق) بموقفهم من (لقيط بن زرارة) فى يوم « جبلة » إذ تحالف « لقيط » مع « أسد » و « غطفان » ومعهم « عمرو بن تميم » و « الرباب » و « حنظلة » ضد « عامر » و « عبس » ، وانجلى غبار المعركة عن مقتل « لقيط » و « عمرو بن الحون » ، ومع ذلك وقفوا معصوبى الأعين ؛ لما هو وركوز فى نفوسهم من خور لايستطيعون معه الاستعانة والصمود ، وهل يمكن أن يصبح فى ذمة التاريخ موقفهم فى (معارك وغيره) من أعدائهم ؟ إن مجاشعا لاتتمتع بمزية أفضل من الهلع والفزع ، فليس فيهم مسكة من عقل ، وليسوا متمرسين بأهوال الحرب ولظاها ، فمن أين لهم الوسائل التى تجلب لهم النصر أو تضمنه على الأقل ، و « رحرحان » و « الوقيط » وسواهما شهود صدق تخبر بصفات « مجاشع » وبما حل بها من ذلة وهوان .

ولو كان (هما) واحدا لاحتملته ولكنه هم وثان وثالث

أبعد هذا يتجرأ الفرزدق على أن يتحدث عن نفسه وقومه ؟ لست أدرى ما الذى يمكن أن يقوله فى مجال التباهى أو التفاخر ، وقد أصبح اغتيابه رغبة مطلوبة ، وأمنية مرجوة ، يستدرئها ويرى فيها سبيل الانتصار لنفسه ، ومن مقتضيات ذلك أن يكف عن الوعيد والتهديد إذا نسى نفسه .

فدع الوعيد فما وعيدك ضائرى أطنين أجنحة الذباب يضير

وإلا فعد (جرير) من سليط القول مايجعل دموعه تهمى ، وعبراته تسح

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ماتستطيع

٥٠ – فما هبت الفرزدق قد علمتم ... وما حق ابن بروع أن يهابا
٥١ – أعد الله للشعراء مني ... صواعق يخضعون لها الرقابا
٥٢ – قرنت العبد عبد بني نمير ... مع القينين إذ غلبا وخابا
٥٣ – أتاني عن عرادة قول سوء ... فلا وأبي عرادة ما أصابا
٥٤ – وكم لك ياعراد من ام سوء ... بأرض الطلح تحتبل التبابا
٥٥ – عرادة من بقية قوم لوط ... ألا تبا لما عملوا تبابا
٥٦ – لبئس الكسب تكسبه نمير ... إذا استأنوك وانتظروا الإيابا
٥٧ – أتلتمس السباب بنو نمير ... فقد وأبيهمُ لاقوا سبابا
٥٨ – أنا البازي المدل على نمير ... أُتحت من السماء لها انصبابا
٥٩ – إذا علقت مخالبه بقرن ... أصاب القلب أو هتك الحجابا
٦٠ – ترى الطير العتاق تظل منه ... جوانح للكلا كل أن تصابا
٦١ – ولو وضعت فقاح بني نمير ... على خبث الحديد إذاً الذابا
٦٢ – فلا صلى الإله على نمير ... ولا سقيت قبورهم السحابا
٦٣ – ولو وزنت حلوم بني نمير ... على الميزان ما وزنت ذبابا
٦٤ – فصبرا يا تيوس بني نمير ... فإن الحرب موقدة شهابا
٦٥ – لعمر أبي نساء بني نمير ... لساءلها [ب]مقصبتي سبابا
٦٦ – ستهدم حائطي قرماء مني ... قواف لا أريد بها عتابا
٦٧ – دخلن قصور يثرب معلمات ... ولم يتركن من صنعاء بابا
٦٨ – تطولكم حبال بني تميم ... ويحمي زأرها أجما وغابا
٦٩ – ألم نعتق نساء بني نمير ... فلا شكرا جزين ولا ثوابا
٧٠ – ألم ترني صببت على عبيد ... وقد فارت أباجله وشابا
٧١ – أعد له مواسم حاميات ... فيشفي حر شعلتها الجرابا
٧٢ – فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا
٧٣ – أتعدل دمنة خبثت وقلت ... إلى فرعين قد كثرا وطابا!!

٧٤ – وحق لمن تكنفه نمير وضبة لا أبا لك آن يعابا
٧٥ – فلولا الغر من سلفى كلاب وكعب لاغتصبتكم اغتصابا
٧٦ – فإنكم قطين بنى سليم ترى برق العباء لكم ثيابا
٧٧ – إذاً لنفيت عبد بنى نمير وعلّى أن أزيدهم ارتيابا
٧٨ – فياعجبى أتوعدنى نمير براعى الإبل يحترش الضبابا
٧٩ – لعلك يا عبيد حسبت حربى تقلدك الأصرة والعلابا
٨٠ – إذا نهض الكرام إلى المعالى نهضت بعلبة وأثرت نابا

* * *

٥٠ – بروع : اسم ناقة كان ذكرها قد تردد فى شعر (راعى الإبل) فجعله جرير ابنها .

٥١ – المراد بالصواعق هنا : ما يصدر من هجاء شعرى عن (جرير).

٥٢ – عبد بنى نمير : (هو راعى الإبل) الذى سبقت الإشارة إليه، والقينان ، أراد بهما : الفرزدق والبعيث .

٥٣ – عرادة : هو عرادة النميرى راوية الراعى .

٥٤ – الزباب : الزبابة : دويبة تشبه الفأرة .

٥٥ – تبا : التب والتبب والتباب : النقص والخسار ، وتبالما عملوا تبابا : مبالغة .

٥٦ – استأنوك : انتظروك ، والخطاب لراعى الإبل .

٥٨ – البازى : الباز والبازى : ضرب من الصقور جمعه : بواز وبزاة وأبوز .

٥٩ – القرن بالكسر : كفؤك فى الشجاعة أوعلم ، والمقصود بالحجاب : لحمة رقيقة مستبطنة بين الجنبين تحول بين السحر والقصب .

٦٠ – الكلاكل : الصدور واحده : كلكل ، ومن شعر « امرىء القيس » :

فقلت له لما تمطى بجوزه وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الطويل الا انجـــل بصبح وما الإصباح منك بأمثل(١)

ويريد أنها من مخافته تظل لاصقة بالأرض .

٦٢ – يروى البيت : فلا صلى المليك .

٦٣ – الحلوم : جمع : بكسر الحاء : العقل ، ويجمع على أحلام ، وفى القرآن الكريم من سورة (الطور) « أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون »(٢) .

٦٥ – المقصبة : من قصب : أى عاب وشتم .

٦٦ – قرماء : قرية ذات نخل لبعض بنى نمير .

٦٧ – يتضمن البيت إشارة تاريخية ، ضمنها (جرير) إغارة (الأقرع بن حابس) ، وإغارة (الاضبط بن قريع) فى تميم على أهل اليمن ، حتى بلغوا « صنعاء » .

٦٨ – الأجم : الأجمة محركة : الشجر الكثير الملتف .

٧٠ – الأباجل ، واحده : أبجل : عرق غليظ فى اليد أو الرجل ، و « عبيد » (اسم راعى الإبل) وفارت : تعقدت وورمت .

٧١ – مواسم : جمع ميسم : المكواة .

---

(١) ديوان امرىء القيس ١٨ .

(٢) آية (٣٢).

٧٢ ــ فى الكامل للمبرد : فغض بكسر الضاد .

٧٣ ــ تكنفه : الكنف : الحماية . ويقال : كنفه : صانه وحفظه وحاطه ، وأعانه كأكنفه .

٧٤ ــ أراد بالدمنة : بنى نمير ، وبالفرعين : كعبا وكلابا .

٧٥ ــ الغر : جمع أغر : السمح الكريم .

٧٦ ــ برق العباء : جمع : أبرق : الذى فيه سواد وبياض ، وبرق العباء : الأكسية .

٧٨ ــ الاحترش : أن يجىء الرجل إلى حجر الضب ، فيضع يده عليه ، ويحركها حتى يخرج الضب ذنبه فيأخذه ، وهو لون من ألوان الحيلة لاصطياده ، والضباب : جمع ضب .

٧٩ ــ الأصرة : مفردة : صرار ، وهو ما يشد فوق أخلاف الناقة لئلا يرضعها ولدها ، والعلاب : جمع علبة : قدح ضخم من جلد يحلب فيه .

٨٠ ــ الناب : الناقة المسنة .

* * *

وينبرى (جرير) للحديث عن راعى الإبل يضعه على سفوده فيرى أن «الفرزدق» كان أقل من أن يكون ذاكيان ، ولهذا رماه بكل منقصة ومثلبة ، فتضاءل «الفرزدق» وتقهقرت مكانته ، وشاع ذلك الهجاء عنه ، وليس (راعى الإبل) بأرفع من الفرزدق مكانة ، وأحظى منه منزلة عنده ، بل هو على العكس ، وإذا كانا شاعرين لهما من الشعر ما يستطيعان أن ينافحا به عن نفسيهما فإن شعرى صاعقة وقذائف وحمم ، أسلطه على من أرى من الشعراء من أمثال الفرزدق تارة ، والبعيث تارة أخرى ،

• انظر ١/٣٤٠

وهأنذا أعد العدة لشعرى كى ينتظم هذا (الراعى) ، وليس من شك فى أن مآله : خيبة المسعى ، وهو المآل الذى ترقب الشاعرين من قبله وسوف يرى راوية شعره (عرادة) ما يصيبه من هذا البركان وحسب (عرادة) أن عرج « جرير » على أمه ، فمسها بشواظ من هجائه الموجع ، كما عرج على قومه ، فوصمهم بما يقبح من أخلاقهم ووضعهم فى صورة زرية ، ولئن كان لهم من المال ما يكفيهم إنه لكسب حرام ، لايقع إلا عند متبلدى الأحاسيس موقعه ، أما الأكياس من الناس الذين يتصفون بالأخلاق الحميدة فأولئك قوم حراص على أن يحوزوا من مكارم القول والعمل وشتان ما بين هؤلاء وهؤلاء ...

على « أن قوم الراعى » إذا كانوا يقصدون أن يحرشوا « راعى الإبل » فانهم بذلك يطمعون فى السباب والشتائم ، وهو ما أضن به عليهم ، بل سوف أوفيهم حظهم كاملا غير منقوص ... وهل غاب عنهم أننى كالصقر الجارح ألتهم ما حولى دون ما هوادة أو شفقة ، فأصيب منهم المقاتل التى تودى بهم بعد أن تقطع منهم نياط القلوب ، ومن ثم ترى الطيور — حتى الكاسرة — تخشى بأسه وتظل تدف بأجنحتها على الأرض بينما هو يطير فى مسابح الفضاء ... ثم من (بنو نمير) ؟ هؤلاء الذين لا وزن لهم من عمل أو خلق ، أفينبغى أن يكونوا على هذه المثابة وهل يصح أن يصيروا أكفاء أو نظراء ؟ ذلك ما لا يصح أو يليق . . وغداً سيعلم الجمع مكانهم فى شعرى الذى سيصم آذانهم ، بعد أن يبلغ كل تجاه ، ولن يكون شعرى عاتياً ، بل هاجماً يهدم عليهم معاقلهم وحصونهم ، ولسوف يذكرون عندئذ مراحل باليمن بعد أن انطلق إليها « الاقرع ابن حابس » « والأضبط بن قريع » ويدركون أن مصيرهم بات منوطاً بقبيلته وصنيعه فيهم كما وقع ذلك فى معاركه خلت ، إذ مننا على نساء بنى نمير ، ومع ذلك لم نجز إلا كما جزى « سنمار » ...

فليستعد (الراعى) للقواصم الشعرية التى يتفتق عنها خاطرى

المشحوذ ، فانها المواسم الحامية التى ستتفرى منه الجلد ، وليت (الراعى) ذو شأن وخطر ، حتى ينشط له الإنسان ، أما هو على هذه الحال فمن الضعة والانحطاط بانتمائه لنمير وكفاه ذلك بهتاناً وإثماً ، ولو لا بقية من قيم وأخلاق ينبغى الحفاظ عليها لذهب أدراج الرياح .. فليهدأ (بنو نمير) وليعقلوا لسان (الراعى) ، فليسوا أهلا للمنازلة والمصاولة والمقارعة ، ذلك لأن لهم ميداناً خاصاً يمكن أن يصولوا فيه ويأتوا بالعجب العجاب (الحلاب والصر) وهى مهمة العبيد الذين لا هم لهم إلا الرعى ، أما الأحرار فان لهم نزعات تطلعية أخرى تختلف عما نصبوا أنفسهم من أجله :

كل له غرض يسعى ليدركه والحر يجعل إدراك العلا غرضا

وأين هم من ذلك ؟ ... ألم يقل « أبو الطيب المتنبى » : إن العظائم كفؤها العظماء ...

٨١ – إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
٨٢ – ألسنا أكثر الثقلين رجلا ببطن منى وأعظمه قبابا
٨٣ – وأجدر إن تجاسرتم نادى بدعوى يالخندف أن يجابا
٨٤ – لنا البطحاء تفعمها السواقى ولم يك سيل أوديتى شعابا
٨٥ – فما أنتم إذا عدلت قروى شقاشقها وهافتت اللعابا
٨٦ – تنح فإن بحرى خند فى ترى فى موج جريته حبابا
٨٧ – يموج كالجبال فان ترمه تغرق ثم يرم بك الجنابا
٨٨ – ستعلم من أعز حمى بنجد وأعظمنا بغائرة هضابا
٨٩ – أعزك بالحجاز وإن تسهل بغور الأرض تنتهب انتهابا
٩٠ – شياطين البلاد يخفن زأرى وحية أرحاء لى استجابا
٩١ – تركت مجاشعا وبنى نمير كدار السوء أسرعت الخرابا

٩٢ – ألم ترنى وسمت بنى نمير وزدت على أنوفهم العلابا ؟..
٩٣ – إليك إليك عبد بنى نمير ولما تقتدح منى شهابا

* * *

٨٢ – الثقلان : الإنس والجن ، وفى القرآن الكريم من سورة « الرحمن » : «سنفرغ لكم أيها الثقلان»(١). والرجل: بفتح الواووسكون الجيم : الرجالة ، يقول « عروة بن الورد » :

تقول : لك الويلات هل أنت تارك ضبوعاً برجل تارة وبمنسر(٢)

٨٤ – الشعاب واحدة (شعبة) ، والشعب : مسيل الماء فى الرمل .

٨٥ – عدلت : أمالت رءوسها ، وذلك من عادة البعير إذا هدر ، والشقاشق : : جمع : شقشقة : ما يخرج من فم البعير من الزبد إذا هدر ، والقرم : الفحل من الإبل ، وهافتت اللعابا : أى ألقت بالزبد المشار إليه .

٨٦ – خندفى : منسوب إلى (آل خندف) الذين مضى ذكرهم فى البيت (الثالث والثمانين) ، والجرية : بكسر الجيم (فعلة) اسم الهيئة من المصدر : الجرى ، والعباب : معظم السيل وارتفاعه وكثرته أو موجه .

٨٧ – ترمه : ترده أو تطلبه .

٨٨ – النجد : ما ارتفع من الأرض ، والغور : على عكسه .

٨٩ – أعزك بضم العين من الفعل : أغلبك ومنه جاء قوله تعالى فى سورة (ص) « وعزنى فى الخطاب» (٣) أى غلبنى ومضارعه مضموم العين كما ترى :

---

(١) الآية (٣١) . (٢) الأصمعيات ٤٤ . (٣) آية ٢٣ .

٩٠ – أريحاء : مدينة بيت المقدس .

٩١ – مجاشع : قوم « الفرزدق » و « بنو نمير » إليهم ينتمى (الراعى)

٩٢ – العلاب : وسم طويل يكون فى العنق أصلا .

٩٣ – ولما تقتدح منى الشهاب : يعنى ولما يصدر عنها الحمم التى تترتب على أعمال فكره بعد أن يورى زنده .

عاد (جرير) فى هذه الأبيات الأخيرة من (الدامغة) يفاخر بقومه ، ويجعل منهم الهامة والذؤابة التى تتسنم المكانة الباذخة ، ومثل هؤلاء إذا بدرت منهم بادرة من غضب تجاوبت معهم الأرض قاصيها ودانيها ، وويل لمن غضبت عليه (بنو تميم) ولم ترض عنه ، فأين يذهب وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ومالهم لا يكونون على هذه الصورة ، وهم الذين تدين لهم الأرض ، فإذا نودى على الملأ أو رءوس الأشهاد : يا آل خندف فسرعان ما تبلغ هذه الدعوة إلى المسامع ، وآنذاك لن يكون إلا التعاطف والحواب ، فى حين أن غيرهم من الناس لا تصل دعوتهم إلى الآذان فضلا عن القلوب ، فالدنيا فى حوزتهم ، ولعله بهذا يتمثل بقول عمرو بن كلثوم :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

وتأسيساً على هذه المعانى ، فمن يكون غير بنى تميم ؟ وبخاصة حين يجد الجد ، وتكشر الخطوب عن أنيابها ؟ أفليس الأولى أن ينتحى عن نزال « جرير » من يبث شيطان السوء فى روعه ، فيزين له مهاجاته ؟ إنه لو فعل لذهب ضحية المغامرة الجسور التى لن تسفر إلا عن ابتلاع اليم له ، ثم تقذف به لجج الماء وأثباجه على الشاطىء جثة هامدة لا حراك بها ولساناً أخرس لا ينبس أو يلفظ ... وخير له أن يجيل بصره ، ليقف على الحقائق التى تهتف بـ (جرير) وتشيد بمنعتهم وعزتهم فى كل مكان ،

سواء أكان نجداً أم غوراً ، ألسنا نقول : إن الأرض دانت لهم هنـا وهنـاك ..

وإذا كان الشعراء قاطبة ولو امد برين بعد أن عرفوا ما لجرير من مراس وقوة على اللذع واقتدار على تخريب ما شيدوا ؛ وهذه (مجاشع) عنوان ينبض بالصدق على هذه الحقيقة ، فهل فى وسع (بنى نمير) أن ترصد جريرا وتتصدى له . وهو الذى يملك فى يديه المياسم يسم بها من أراد بشكل أو بآخر ، و « نمير » لا تعدو — بالغة ما بلغت — أن تكون إحدى القبائل التى إن أراد (جرير) أن يجرعها كئوس المذلة فعل — ولا عليه ... فليعقل (الراعى) لسانه قبل أن تلفحه وقومه النار : أو تطوى صفحتهم من سجل الوجود ...

حول القصيدة

دامغة « جرير » من القصائد الطويلة النفس التى تدور على محورين أساسيين : الهجاء والفخر ، بيد أن الهجاء فيها له طابع خاص حيث يسرف فى الإقذاع ، ويتمادى فيه ، لا لمعنى سوى غلبة الخصم والفوقية عليه . .

وإذا كان الإسلام قد دعا إلى نبذ السخرية ، واطراح الفخر بالأحساب والأنساب ، فقد جاءت دامغة « جرير » تموج بالمعانى التى حظرها الإسلام ، واعتبرها عودة إلى ظلام الجاهلية الحالكة ، كذلك جاءت النقائض الشهيرة بين « جرير » والفرزدق ، والأخطل تتناغم مع ما حذر الإسلام منه ، من التغنى بالأحساب ، والتباهى بالعصبية القبلية ، والإشادة بالعرق إلى الإفحاش فى الهجاء الذى يتناول السوءات تناولا مقذعا ، يجاهر بالحديث عنها ، ويعالن بذلك فى تطاول وتبجح . . وشطط وإسراف ..

وغنى عن البيان أن تقرر الحقائق التالية :

(أ) أن الجاهليين عرفوا التهاجى ، سبيلا من سبل المذمة والتنقص ، ووسيلة من وسائل الهدم ، يعمد إليه الشاعر . فيرمى غيره بالجبن والبخل ، أو الانتقاص من القبيلة : أو الأبوين بما شاءت له شاعريته . . وشاع ذلك فى أشعارهم بما سبق أن ألمنا به فى بعض التناولات الماضية .

(ب) وما إن أظل الإسلام الأرض بتوجيهاته الرائعة حتى نهى عن التعاظم بالآباء والأجداد وأحصى على المتكلم شاعراً كان أو ناثرا سقطاته وعثراته ، وطلب إليه أن يستهدى بنور الإسلام الوضىء ، الذى يشع فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « رحم الله رجلا قال خيراً فغنم ، او سكت فسلم » وفى قوله صلى الله عليه وسلم ذلك لمعاذ بن جبل إذ قال له : « وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله » ؟ فكان رده (ص) : « ثكلتك

أمك ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ؟.

وتأتى توجيهات القرآن الكريم فى هذا النطاق غاية فى الروعة والنبل ، ومن ذلك قوله تعالى : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف ، أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما »(١) .

أجل ، جاءت تعاليم الإسلام ترغب إلى الشاعر الجاهلى ألا ينحط إلى الوهدة التى تردى إليها بعضهم فى وصف الأعضاء التناسلية أو رميه بالقماءة أو البخل ، وما إليها من صفات مستهجنة . . أو لا ترى إلى قول (طرفة ابن العبد) :

فما ذنبنا فى أن أداءت خصاكم ... وأن كنتم فى قرمكم معشرا أدرا
إذا جلسوا خيلت تحت ثيابهم ... خرانق توفى بالضغيب لها نذرا(٢)

وما لنا نذهب بعيداً ، وهذا « حسان بن ثابت » يأبى إلا أن يرد على أعداء النبى صلى الله عليه وسلم بما يدل دلالة أكيدة على ما يثير غيظهم وحنقهم ، ولعله فعل ذلك من قبيل الرد عليهم بالمثل ، إمعانا فى إغاظتهم ، واقرأ قوله فى أعداء النبى صلوات الله وسلامه عليه :

هلا منعتم من الخزاة أمكم ... عند الثنية من عمرو بن يحموم
أسلمتموها فبانت غير طاهرة ... ماء الرجال على الفخذين كالموم(٣)

---

(١) النساء ، الآية ١١٤

(٢) ديوان طرفه بن العبد ٩٠ تحقيق : فوزى عطوى ، وانظر الشعر والشعراء ١/١٩٥ .

(٣) ديوان حسان بن ثابت . ويروى :

هلا منعتم من الخزاة أمكم ... عند الثنية من عمرو بن يحموم
بنو المغيرة فحش فى نديهم ... توارثوا الجهل بعد الكفر واللوم

على أن مثل هذا الشعر من (حسان) له مندوحته التى ألحنا إليها ، أما هو عند (طرفة) ، وأمثاله من الجاهليين فأظنه ورد نزرا لا يكاد يرتقى إلى ما يشكل ملمحا عريضاً من ملامح الشعر الجاهلى ، إذ كان فى غنى عن هذا اللغط بمنادح القول الواسعة فى هجائه ، وعندهم أن الهجاء بالفرار أو البخل منقصة لا تعدلها منقصة أخرى ، فضلا عما عرف عن الجاهليين بصفة عامة من الاتصاف بالأنفة والمروءة .

(جـ) والذى لاشك فيه أن المخضرمين والإسلاميين أفادوا فائدة كبرى من الصور الساحرة التى افتن القرآن الكريم فى عرضها فكانت مادة خصبة انطبعت على أشعار بعضهم ، ممن نزعوا هذا المنزع الساحر ، وحسبك أن تقرأ قوله تعالى فى صفة المنافقين ، « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة(١) » ، وكيف اتكأ على هذا التصوير فى الآية الكريمة « ابن الرومى » الشاعر العباسى ، فى قوله :

طول وعرض بلا عقل ولا أدب ... فليس يحسن إلا وهو مصلوب(٢)

وأولى من (ابن الرومى) أولئك الذين عاصروا نزول القرآن الكريم وتأثروا به ، وبهرهم « جماله وإبداعه » باعتباره حدثا فذا تطلعوا إلى محاكاته ، والإتيان بأقصر سورة منه فعجزوا صاغرين .

(د) وإذا كان للقرآن الكريم فى تصويره الفنى طرائق ترسمها الشعراء واحتذوها فإن الشعراء كذلك « تأثروا بذلك الرقى العقلى — إلى حد ما — مما ترامى إليهم من علوم وتجارب ، وانتقلت إليهم من الفرس وأهل الشام الذين اتصلوا بهم بعد فتوحات عصر الخلفاء ، تلك الأمم التى تأصلت فيهم

---

(١) المنافقون ، الآية ٤

(٢) ديوان « ابن الرومى » ١/٢٩٠ تحقيق الدكتور حسين نصار ، وراجع كتاب الدارس (الفكاهة فى الأدب العربى إلى نهاية القرن الثالث الهجرى) ٧٣ .

حضارات قديمة ، وانتقلت منهم إلى الغزاة الفاتحين من العرب ، فعرفوا فنونا تأديبية جديرة منها بلاشك القصص الشعبي الساخر على لسان الحيوان ، إلى جانب قصص الأمم البائدة و الأساطير الشعبية التي تحمل في ثناياها حكما وعظات وحوادث وأخيلة ، هي عصارة شعوب متمازجة ، وتجارب أجيال متعددة ، متسلسلة(١) .

(٨) كل شيء الآن في عصر « جرير » مما يذكي الحاسة الفنية لدى الشاعر ، متى صادفت شاعراً ذا موهبة واستعداد ، و « جرير » من هذه الناحية ملك من المقومات الفنية ما يؤهله لأن يكون في صدارة الشعراء على عهده ، كما سنفصح عن ذلك في موطنه ، وفضلا عن هذا كله كان للبيئة التي نشأ فيها « جرير » تأثير أي تأثير على أن يبرز في هجائه وتفنن ريشته فيه افتنانا رائعاً أضفت عليه من الأصباغ ما لونه بطابع معين ، تحدث عنه (ابن قتيبة) فقال عنه :

« وكان من أشد الناس هجاء ، وحدثني « عبد الرحمن الأصمعي » قال « أخبرنا شيخ من أهل البصرة قال : مر راعي الإبل في سفر فسمع إنسانا يتغنى على قعود له بشعر « جرير » وهو قوله :

وعا وعوى من غير شيء ، رميته بقافية أنفاذها تقطر الدما
خروج بأفواه الرواة كأنها قرى هندواني إذا هز صمما

فقال : لمن هذا ؟ قيل : لجرير ، فقال « الراعي » لعنة الله على من يلومني أن يغلبني مثل هذا(٢) .

(و) وعلى ذكر الهجاء الذي شأى فيه معاصريه من الشعراء لا يفوتنا أن نذكر — ولو في مس رقيق — نبذة عن نقائضه التي ضمها تراثه الشعري

---

(١) جرير ، حياته وشعره ٣١٦ .
(٢) الشعر والشعراء ١/٤٦٦ .

الخالد ، حيث تمثل فى شعره معلما بارزا يدعو إلى التساؤل ، ويثير استفهاماً مؤداه :

ماذا عن النقائض ؟ وماذا وراءها ؟

والإجابة عن التساؤل السابق يجرنا إلى أن نذكر الأسباب المباشرة التى أججت نار الهجاء بينهما ، وهى على مايبدو :

١ — انتهاز كل من (الفرزدق) و « جرير » فرصة التشهير بصاحبه ، وذلك كما حدث من (جرير) حين سخر بالفرزدق سخرية مريرة فى حادثة سببها « المرأة » ، ولما رثى « جرير » زوجه (خالدة) رثاء مفجعا أراد (الفرزدق) أن يجعل من هذا الموضوع مادة للتهجم عليه ، ولم يجد (جرير) — حيال ذلك — من بد إلا العودة إلى الحديث الأول الذى يقطر سخرية ولذعا — وهكذا كانت (المرأة) عند الشاعرين داعية إلى ما أذيع عن الشاعرين من بعض النقائض .

٢ — محاولة كل من الشاعرين أن يكون طرفا فى التهاجى الذى وقع بين كليهما وآخر من الشعراء ومثال ذلك ما حدث من (الفرزدق) حين تدخل بين (جرير) و (الراعى) وقد سلقه ببائيته :

أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا

حيث حاول (الفرزدق) الرد عليه بنقيضة تنقض ما قاله فى « الدامغة » .

وحين رفع (جرير) عقيرته بالهجاء على (الأخطل) قائلا له :

لمن الديار ببرقة الروحان إذ لا تبيع زماننا بزمان

تدخل « الفرزدق » رادا على (جرير) بقوله :

يابن المراغة والهجاء إذا التقت أعناقه وتماحك الخصمان

٣ — ومن الأسباب التى أرثت بين الشاعرين الخصومة أسباب اجتماعية

أو حوادث شخصية وقعت على مسرح المجتمع وتعلقت بشخص الشاعر ، ومثل هذه الحوادث من الضرورى أن يستلهم الشاعر مادة نقيضته من وحى أحداثها ومواقفها ، وإنك لتقرأ فى النقائض ، كيف كان طرد (الفرزدق) من المدينة فى زمن « عمر بن العزيز » رضى الله عنه سجالا بين الشاعرين جهد كل منهما فيه أن يمحو شخصية الآخر (١) بما فجره هذا الموقف من معان وأفكار .

٤ ــ على أنه يمكن القول بأن بعض الأحداث السياسية كذلك حرك لهوات الشاعرين ، وإن كان ذلك من الندرة بمكان .

٥ ــ وقد تقرأ بعض النقائض فلا ترى بين يديها أو من خلالها ما تلمس منه السبب الذى حدا بالشاعر أن ينشئ قصيدته ، وبذلك يمكن اعتبار الرغبة فى الهجاء وحدها عاملا يقف وراء هذه القصائد ومثيلاتها عند الشاعرين .

والحق أن سخرية (جرير) كتب لها السيرورة والانتشار لما تطوى فى تضاعيفها من معان أحس المجتمع آنذاك بأنها تعبير عنه ، وإفصاح عن واقعه ، وهذا أحد الباحثين يقول :

وقد سخر (جرير) من المجتمع الذى أظله وخصمه الفرزدق فكان شاعرنا يمثل « الديموقراطية » الشعبية البسيطة التى حاولت أن تأخذ مكانها فى مجتمع تسيطر عليه (الارستقراطية) الفنية التى كان يمثلها (الفرزدق) والتى توورثت عن الجاهلية ، وحاول الإسلام القضاء عليها بقول النبى صلى الله عليه وسلم : (لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى) ، فسخر (جرير) من هذا المجتمع المتعالى فى شخص (الفرزدق) ، ولعله لم يكن قد وصل إلى هذه الدرجة من الفلسفة ، حتى يفطن إلى أنه مبدأ يخدمه

---

(١) انظر النقائض رقم ٧٥ : ٧٦ .

ويحاول فرضه جاهداً مجاهداً طوال حياته كأبطال المذاهب الاجتماعية أو السياسية أو الدينية الذين يكرسون حياتهم وكل ما يملكون فى سبيل نشرها والدفاع عنها . . لعل (جريرا) لم يكن متفلسفاً بهذا المعنى الكبير ، ولكنه كان البؤرة التى يتجمع فيها إحساس الشعب أو المجتمع ، فيعطى القدرة على الكلام أو الإشعاع ، فيتكلم ويترجم ما أحسه مجتمعه ، وما ينوء به من آلام وعلل ، لا يستطيع هذا المجتمع ككل أن يتحدث بها ، إذ ليس له لسان كبير ، يجمع نفثات صدره فى شخص موهوب من الأشخاص ، فينطقه بها(١) .

والحق ما قاله هذا الباحث ، ذلك لأن جريرا كان مهيأ منذ طفولته لأن يكون الشخصية التى تتغلغل فى قلب المجتمع ، وسبر أغواره ، وليس كل شاعر صالحاً بطبعه لمثل هذه المهمة يضطلع بها عن جدارة واستحقاق . . . وقد يكون الحديث عن الشاعر — فيما بعد — مما يرفع الأستار عن هذه القضية ، وذلك حين نعرض — فى شئ من البسط — للترجمة عنه بما يضع النقط فوق الحروف .

---

(١) جرير حياته وشعره ص ٣٣٠ .

تأملات فى القصيدة

« الدامغـــة » إحدى القصائد التى هجا بها (جرير) « عبيدا بن حصين » الملقب براعى الإبل .

والقصيدة من بحر الوافر الذى ينتظم الوحدات الموسيقية الآتية :

مفاعلتن مفاعلتن مفاعل مفاعلتن مفاعلتن مفاعل

والقصيدة أنشأها (جرير) على أثر مشاحنة بينه وبين الراعى وابنه (جندل) .

والذى يتأمل القصيدة يراها تدور حول الأغراض التالية :

(أ) الغزل وذكرياته ، وهو الذى يمثل مطلع القصيدة عنده ، ومن الخصائص البارزة فى شعره ولا سيما النقائض تلك المقدمات الغزلية الرقيقة ، وترى ذلك واضحاً فى قصيدته التى يبدؤها بقوله :

لقد سرنى ألا تعد مجاشع من الفخر إلا عقر ناب بصوأر
أنابك أم قوم تفض سيوفهم على الهام ثنيى بيضة المتجبر(١)

ولعل ذلك راجع فيما يبدو إلى رقة النسيب عنده ، فقد سئل « الأخطل » أيكم أشعر ؟ قال : أنا أمدحهم للملوك وأنعتهم للخمر والخمر (يعنى النساء) وأما جرير فأنسبنا وأشبهنا وأما « الفرزدق » فأفخرنا (٢) .

والمطالع الغزلية عند (جرير) تضرب بجذورها إلى مألوف الشعراء من الماضين فى الحديث عن المرأة ، فتراه أحيانا يتجول فى مطلعه بالحديث عن الوشاة والعذال ، كما تجد ذلك فى باثيته :

---

(١) مطالع القصيدة فى ديوان (جرير) المجلد الثانى ص ٨٨٤ .

(٢) الشعر والشعراء ١/٤٦٧ .

أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا

وكم تمنى الشعراء ، أن يكونوا بعيدا عن أعين الرقباء والوشاة ، أملا فى الظفر بالمحبوب ، ورغبة فى الأنس به ، وما أظن شاعراً رجا أن يظفر بمحبوبته بمنأى عن الوشاة والعذال بمثل ما هجس فى أعماق (كثير) حين قال لصاحبته (عزة) :

ألا ليتنا يا عز من غير ريبة بعيران نرعى فى الخلاء ونعزب
كلانا به عرفمن يرنا يقل على حسنها : جرباء تعدى وأجرب
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله علينا فما ننفك نرمى ونضرب

وطورا يأبى إلا أن يخضع مظاهر الطبيعة من حوله لإحساسه الذى ألهبه الحب ، وأضناه الهوى . أليس هو القائل :

أخالد عاد وعدكم خلا با ومنيت المواعد والكذابا
ألم تتبينى كلفى ووجدى غداة يرد أدلكم الركابا
أهذا الود زادك كل يوم مباعدة لألفك واجتنابا
لقد طرب الحمام فهاج شوقاً لقلب ما يزال بكم مصابا(١)

وأحيانا أخرى يلم فى غزله بذكر ما حل به من مشيب ، يذكره بغضارة شبابه : وما كان له فيه من ذكريات مرحة تأبى القيود والأصفاد إلى غير ذلك من المعانى التى تطرق إليها السابقون من الشعراء ، من مثل قوله :

أتصحو بل فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالروح
تقول المعاذلات علاك شيب أهذا الشيب يمنعنى مراجى
يكلفنى فؤادى من هواه ظعائن يجترعن على رماح(٢)

---

(١) الديوان — المجلد الثانى ٦٤٩ .
(٢) ذاته ، المجلد الأول ٨٧ .

وهكذا ترى المطلع الغزلى فى شعره مشدودا — فى مجمله — إلى المطالع التى عرفت لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، على أن النسيب أو الغزل المادى فى شعره مما تنعكس عليه معانى السابقين ، فإذا تغزل « امرؤ القيس » فى معلقته قائلا :

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هى نصته ولا بمعطل(١)

وجدنا (جريرا) يحاكى هذه الصورة فى شعره ، فيقول ،

يبدين من خلل الحجال سوالفا بيضا تزين بالجمال المذهب
أعناق عاطية الغصون جوازىء يبحثن بالأدمى عروق الحلب(٢)

ومما ينبغى ملاحظته أن (جريرا) لم يحتل الغزل المادى فى شعره حيزا واسعاً ، بل جاء لماما على النحو الذى أشرنا إليه من شعره فى لفظ ضاف ، وأسلوب شفيف يقطر رقة وعذوبة ، وإن جاءت أخيلته أو صوره البيانية فيه على النمط الذى وقع للقدامى فى شعرهم الغزلى .

(ب) وينفلت (جرير) من مطلع الدامغة ليواجهنا مباشرة بالهجاء :

متى أذكر بخور بنى عقال تبين فى وجوههم اكتئابا

فنراه يتحدث عن خور بنى عقال ، هؤلاء الذين ينتهون إلى (مجاشع) وهى صفة لا ينفك هجاؤه ينطق بها ، كما نعتهم بالقيون :

ستعلم من يصير أبوه قينا ومن عرفت قصائده اجتلابا

وقد تراه يصم « الفرزدق » بوصمة أخرى ، ودلك حيث ينعته بحوق الحمار ، على نحو ما جاء عنه فى قوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع

---

(١) ديوان (امرئ القيس) ١٦ .
(٢) ديوان جرير — المجلد الأول ٢٤٦ .

إن الفرزدق قد تبين لؤمه حيث التقت حششاؤه والأخدع
حوق الحمار أبوك فاعلم علمه ونفاك صعصعة الدعى المسبع (١)

ولا يكتفى (جرير) بأن يخلع عليهم هذه النعوت الزرية ، بل يضيف إليها صفة أخرى ، وهى (النخب) ، هذه الصفة التى من معانيها : العض والنكاح ، والاست ، إلى ما تؤديه من معانى الجبن . . . أو لا ترى إلى قوله :

ولاقى القين والنخبات غما ترى لوكوف عبرته انصبابا
أتوعدنى وأنت مجاشعى ترى فى خنث نخبته اضطرابا

ثم يمضى فى تعداد مساوئهم وإبرازهم فى إطار من الضعة والهوان ، فيذكر أن عشاءهم الخزير ، إمعانا فى الغض من شأنهم ، والزراية بأقدارهم كما جاء فى قوله عنهم :

تعشوا من خزيرهم فناموا ولم تهجع قرائبه انتحابا

وآونة يضيف إلى (الخزير) ارتضاع « الفيشل » :

ما كان ينكر فى ندى مجاشع أكل الخزير ولا ارتضاع الفيشل (٢)

ولا يجد (جرير) بدا من وصفهم بما يثير المخاوف فى أنفسهم ، فيعود بهم إلى مواقف خذلوا نصراءهم فيها ، فصارت شهيرة فى تاريخهم وعاراً سودوا به صحائف أفعالهم :

أتنسون الزبير ورهط عوف وجعثن بعد أعين والربابا
ألم تر أن جعثن وسط سعد تسمى بعد قضتها الرحابا

---

(١) ذاته ٢/٩١٦ .
(٢) ذاته ٢/٩٤١ .

فيربط بين موقف وآخر ، لكل منهما صورته ، ولكنهما تابعان فى الحقيقة من معنى نفسى واحد : عدم الشعور بالكيان ، ولو أن لهم كيانا لأجاروا (الزبير بن العوام) وقد استجار بهم ، وأين هم ممن خصهم الشاعر بقوله :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا

إن البون لشاسع ، والهوة واسعة ، وأما موقفهم (الآخر) من « جعثن » فإنه وإن بدا مخالفا فى الشكل والهيكل لموقفهم من (ابن الزبير) ، فقد صدر عن المعنى النفسى ذاته ، إذ الشرف معنى لا يحرص عليه إلا أولو النخوة من الرجال ، أما غيرهم فقلما يحسون خطره ، وكأنما عنى (جرير) أن يوجه إليهم صفعات دامية تتوالى ، لعلهم يفيقون : وإن كان ذلك بعيد المنال .

ويطلعك (جرير) فى شعره الهجائى بما يؤكد أنه كان أحيانا يعمد إلى تصوير « الفرزدق » تصويرا كاريكاتيريا — حيث صوره أو شبهه بالقرد معتمداً فى هذا التصوير على ملامحه الخلقية من قصر قامته ، وقبح وجهه ، ومن هذا الأخير ما قاله فى (الفرزدق) :

لقد ولدت أم الفرزدق فاجرا وجاءت بوزواز قصير القوائم
ما كان جار للفرزدق مسلم ليأمن قردا ليله غير نائم
يوصل حباليه إذا جن ليله ليرقى [إلى جاراته بالسلالم
أتيت حدود الله مذ أنت يافع وشبت فما ينهاك شيب اللهازم
تنبع فى الماخور كل مريبة ولست بأهل المحصنات الكرائم(١)

ولئن جاز فى عرف الفن أن يصور (جرير) الفرزدق فى تلك الصورة

---

(١) الشعر والشعراء ١/٤٤٨ .

المضحكة فليس بجائز ما وجه وكده إليه فى الهجاء حين جسم بعض الأعضاء التناسلية للمجهو أو قومه بما لا نرى داعياً لذكره .

(ج) والجدير بالتأمل أن « جريرا » يمزج فخره بالهجاء حتى تتضح قسمات المهجو فى السمع ، وتتجسد للعين على الغرار الذى يتجلى فى دامغته ...

وفخر « جرير » له طابع خاص ينتحيه ، فليس فخراً بالنفس أو بالإباء على نحو ما نجده عند (الفرزدق) ، وإنما هو الفخر برجال تميم كلهم ، وبخاصة « يربوع » أصله الذى انحدرت عنه قبيلة « كليب » .

فلا وأبيك ما لاقيت حيا ... كيربوع إذا رفعوا العقابا
وما وجد الملوك أعز منا ... وأسرع من فوارسنا استلابا
إذا حرب تلقح عن حيال ... ودرت بعد مريتها اعتصابا

ويثنى (جرير) أحياناً فيذكر — فى فخره — « خندف » زوج (إلياس بن مضر) الجد الأكبر لتميم وبرة ، وتستأثر مواضع من فخره بالإشادة بها ، والتنويه بصفاتها .

ألسنا أكثر الثقلين رجلا ... يبطن منى وأعظمه قبابا
وأجدر إن تجاسر ثم نادى ... بدعوى يا لخندف أن يجابا

ثم يهدد (راعى الإبل) بقوله :

تنح فإن بحرى خندفى ... ترى فى موج جريته حبابا
بموج كالجبال فان ترمه ... تغرق ؛ ثم يرم بك الجنابا

وهو القائل كذلك فى غير (الدامغة) :

لن تستطيع إذا ما خندف خطرت ... شم الجبال ، ولج المزبد الجارى
ترمى خزيمة من أرمى ويغضب لى ... أبناء مر بنو غراء مذكار
إن الذين اجتبوا مجدا ومكرمة ... تلكم قريشى والأنصار أنصارى

وتراه مرة أخرى يقرن قيس عيلان بن مضر إلى خندف :

والحى قيس بأعلى المجد منزلة ... فاستكرموا من فروع زندها وارى
قومى فأصلهم أصلى وفرعهم ... فرعى وعقدهم عقدى وإمرارى(١)

ولا ينسى (جرير) الفخر بالأيام التى انكسر فيها أعداؤه ، وبالحرب التى فرقتهم أيدى سبا ، وخرجوا منها صاغرين مدحورين ، يجرون أذيال الفشل وخيبة المسعى : ولا يمنعه ذلك أن يباهى بما كان لهم من بطولات فارهة ؛ ملؤها العزة والقوة ؛ يقول فى ذلك :

ونحن الحاكمون على قلاخ ... كفينا ذا الجريرة والمصابا
حمينا يوم ذى نجب حمانا ... وأحرزنا الصنائع والنهابا
لنا تحت المحامل سابغات ... كنسج الريح تطرد الحبابا
وذى تاج له خرزات ملك ... سلبناه السرادق والحجابا

ثم ينتقل معيراً فيقول :

وليلة رحرحان تركن شيبا ... وشعثا فى بيوتكم سغابا
رضعتم ثم سال على لحاكم ... ثعالة ، حيث لم تجدوا شرابا

ولم يتعرض (جرير) فى فخره إلى أن يخوض مخاضات الأيام بكل تفاصيلها ووقائعها على نحو ما نجده مثلا عند بعض شعراء الجاهلية الفرسان من أمثال «عنترة بن شداد» الذى كان وصفه الحرب بمثل عدسة لاقطة تصور ما جرى على أرض المعركة من كروفر وغير ذلك ، «بل لا يتميز افتخاره بيوم ما من الأيام عن غيره ، ولا يحاول أن يخوض بخياله معمعة هذه الحروب محاولا تصويرها تصويراً تفصيلياً يشبع نهمنا الفنى وإحساسنا بقعقعة السيوف والرماح ، ووقع سنابك الخيل فى أثناء المعركة إنه لم يفعل ذلك بل كان مروره عليها مروراً سريعاً لدرجة أنه يذكر

(١) الديوان ١/٢٣٥

اسم يوم أو أيام فى بيت واحد ، فلا يسور افتخاره فيها إلا بأنهم أسروه ملكاً من الملوك أو بأنهم منعوا نساءهم من السبي » (١)

وتلمح فى فخره أحياناً - إشارات تومض بالتباهى والفخر بنفسه — وإن جاء ذلك قليلا، والدامغة عينها تضمنت من هذه الإشارات ما تراه فى قوله عن نفسه (آنا) :

أنا البازى المدل على نمير ... أتحت من السماء لها انصبابا

وآونة تراه يتيه بشعره إعجاباً ، ويسرف فى إطرائه

أعد الله للشعراء منى ... صواعق يخضعون لها الرقابا

وكذا قوله عن قصيدة :

فصبراً يا تيوس بنى نمير ... لساء لها بعقصيتى سبابا
ستهدم حائطى قرماء منى ... قواف لا أريد بها عتابا

(د) وإذا تناول « جرير » أعداءه على تلك الصور المقذعة لم يفته أن يوجه سهامه المصمية إلى (راعى الإبل) «عبيد بن حصين» وهل ثمة تبكيت وتعنيف أبلغ من قوله فيه :

ألم ترنى صببت على عبيد ... وقد فارت أباجله وشابا
أعد له مواسم حاميات ... فيشفى حر شعلتها الجرابا
فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ثم انظر إليه بعد أن تهجم عليه بما يشبه السم الزعاف يؤكد أن هجاءه لم يشعل فيه وميض فكره، فكان أن اكتفى بما جادت به شاعريته ، وكأن هذا الكلام يحمل فى طواياه إبراقاً وإرعاداً :

تركت مجاشعا وبنى نمير ... كدار السوء أسرعت الخرابا
ألم ترنى وسمت بنى نمير ... وزدت على أنوفهم العلابا
إليك إليك عبد بنى نمير ... ولما تقتدح منى شهابا

---

(١) جرير حياته وشعره (٣٥٩) .

ومن نافلة القول أن نقرر هنا أن التهاجى بين « جرير والفرزدق » استمر حوالى سبع سنوات ، وكان (جرير) يقيم بالمروت من البادية والفرزدق بالعراق ، وهمايتها جبان ، فأرسلت (بنويربوع) إلى (جرير) إنك مقيم بالمروت ليس عندك أحد يروى عنك ، و (الفرزدق) بالعراق قد ملأها فيك منذ سبع حجج ، فانحدر إلى العراق فأقام بالبصرة(١) .

والحق أن (جريرا) بهجائه الذى خلفه فتح جديدا فى مجال الشعر الهجائى الساخر مما سنه للشعراء من بعده من أساليب لم يكن لهم بها عهد ، أو لعلها لم تكن بينة واضحة مما حمل بعض الباحثين على القول بأنه الرائد الأول فى شعر الهجاء الساخر ، ذلك الأسلوب الرفيع الذى يشفى الفنان مما به من غيظ مكبوت بلذع أشبه بالسم القاتل الذى يسرى فى جسم الفريسة من غير ضجة ولا ضوضاء ، ولعل (جريرا) قد فطن إلى مقدرته فى السخرية فيروى (ابن عبد ربه) فى العقد الفريد أنه كان يقول : (إذا هجوت فأضحك(٢) .

(ه) فإذا جئنا إلى ألفاظ القصيدة وجدتها سهلة ، مأنوسة ، لا يعوزها تريث فى الفهم أو إبطاء فى الوقوف على المعنى ، ولولا هذه الإشارات التاريخية التى حفلت بها القصيدة لكانت من الوضوح بحيث يصافح معناها العقل للوهلة الأولى ... ومع سهولة ألفاظها ، وروعة أسلوبها ونظمها تبقى القصيدة ذات إشعاع آسر ، يخلبك بروعته ، ويروقك بصفائه ، وهو السر الذى يكمن وراء كل قصيدة معجبة ...

ويتحدث المرحوم الأستاذ أحمد أمين حول تلك القضية فيقول :

فى أسلوب الشعر قوة غامضة لبعض الكلمات وبعض التراكيب ، تنتج هذه القوة من اجتماعها أو جرسها ، فتسبب استثارة الخيال وتنفذ إلى صميم القلب ، ولأسلوب الشعر السحر الطبيعى الذى يرجع إلى الوحى الأسمى ،

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٤٦٧

(٢) جرير حياته وشعره ٣٥٦

وإلى قوة الصياغة التى تعبر بها اللغة عن معان وراء المعانى الاصطلاحية اللغوية ، وأسلوب الشعر أسلوب رمز وإيماء (١) .

وما يبدو من بعض ألفاظ غريبة فى شعره مثل .

تركتم بالوقيط غطارطات تردف عند رحلتها الركابا

أو كما يروى البيت التالى :

تواجه بعلها بعضارطى كأن على مشافره حبابا

فهى غرابة ملحوظة متعمدة : فالرنين الموسيقى للكلمة نشاز لا تستريح إليه الأذن ، لطول الكلمة من جهة ولإنهائها بحرف الطاء من جهة أخرى وكذلك قد تكون هيئة الكلمة أو شكلها مما يجسد المعنى الذى قصد إليه الشاعر ،و (جرير) فى هذا الباب تصرف فى اللغة ، وفى الأسماء التى أطلقها على منهجه ما يشهد له بالاقتدار والضلاعة .. ألم يقل :

تلقى بنات أبى الحلوبق نزعا نحو القيون ، وما بهن نفار(٢)

فماذا تعنى كلمة (الحلوبق) هذه ؟ وهل لها من اشتقاق ؟ أغلب الظن ذلك من قبيل إطلاق الأسماء المرتجلة التى يمكن أن تسهم فى المعنى المراد ، على الرغم ما يكتنفها من إبهام وغموض ، وقد ورد مثل ذلك فى (الشعر العربى) على لسان (بشار بن برد) حين قال :

سيدى خذ بى أتانا عند باب الأصفهانى

تيمتنى ببنـــــان وبدل قد شجانى

إلى أن قال :

ولها أخدع أسيل مثل خد الشنفران

---

(١) النقد الادبى للمرحوم أحمد أمين ٩١ (بتصرف)

(٢) ديوان جرير ٢/٨٧٠ .

فسأله أحد أصحابه : وماالشنفران ؟ فأجاب (بشار) : ومايدريني ؟ هذا من غريب الحمار . فإذا لقيته فاسأله .

(و) ويتقاضانا الحديث عن موسيقية الكلمة التى تنبع من الغرابة أن نذكر أن الترنيمة الموسيقية التى تمنحها الغرابة فى مقام بعينه لا تكمل أو تتسق إلا فى الإطار العام للقصيدة ، وهنا ينبغى أن نشير مرةأخرى إلى أن القصيدة من بحر الوافر وفى مزايا وحداته الموسيقية التى يتشكل منها : التدافق وتلاحق الأجزاء وسرعة النغمات إذا كان تاماً ، وهو أشبه بالوزن الخطابى يشتد أويلين حسب الإرادة ، وقد صلح لمثل الهجاء والفخر والمدح ، كما صلح للغزل وما إليه وهو سلاح ذو حدين(١) .

ونحن إذا أنعمنا النظر فى شعر (جرير) استبان لنا أنه استعمل الوافر بكثرة فاقت سواه من الأبحر فى شعره ، ويليه بعد ذلك (الطويل) ولعله كان بالأول أكثر ولوعاً ، ويدل على ذلك نجاحه فى القصائد اللى قال فيها على هذا الوزن ، فسمى بائيته فى الراعى : الجوساء (٢)

وإذا كان من خاصية (الوافر) تدفق نغماته وانتشارها على نحويتلا حق إيقاعه فقد جاء رويه من الأصوات الشديدة كما أثبتت ذلك التجارب الحديثة (٣) ونسبة شيوعها ٤٣ مرة فى كل ألف من الأصوات الساكنة ...

ويقينى أن هذا الصوت نظراً لما له من خصيصة فنية يعين – من غير شك – على الإيقاع الموسيقى ، وبخاصة فى مواطن الفخر والهجاء

---

(١) مجلة الشعر أكتوبر ١٩٧٧ من مقال الدكتور محمد بدوى المختون ٥١

(٢) جرير حياته وشعره ٢٨٦

(٣) انظر : الأصوات اللغوية د. ابراهيم أنيس ٢٢ وما يليها .

والمدح ، فالشدة فيه مما تضفى عليه هديراً ، ينطلق فى الأسماع بعد ذلك بصورة هائلة ، حيث إسباغ الباء على تلك الصورة فى القصيدة عامل له أثيره فى استفاضة الترنم والإيقاع . وربما كان ذلك بعينه مدعاة حملت (جريراً) على أن يتردد هذا الصوت فى كثرة من قصائده جعلته يحتل المقام الثانى بعد حرف الراء .. على أن الباء يغلب عليها من الأغراض :

الفخر والتهديد ، والإغارة ، والشجاعة ، وإن جاء عليها العتاب أيضاً وشكوى الزمان ووصف الحال واللوم(١) ، فجرير إذن بعد أن تأتى قصيدته على هذا البحر يهيىء له مناخاً معيناً ، وجواً حالماً تتعاون فيه الحوقة ممثلة فى كلمات البيت ، وأصواته مع اللحن الأصيل الذى يناسب الغرض وبواعثه ، وتلك مقدرة لاتواتى إلا شاعراً فذا يمتلك طاقة من الحس الفنى الخلاق ، وأدوات طيعة ، يستثمرها فى توجيه هذه الطاقة كلما أراد . وكأنى بهم حين قالوا فى وصف شعره (جرير يغرف من بحر) عنوا ما ذهبنا إليه الآن فى هذا التحليل .

(ز) أما الخيال عنده فى (الدامغة) فليس خيالا شاطحاً ، ولا هو بالخيال الذى يعول على الإبداع والابتكار والتأليف وإنما هو خيال يعتمد الصور المألوفة ويقوم عليها ، ومن ثم تبدو الصور الخيالية فى شعره قريبة ، لاتجنح إلى الإبعاد أو الغلو ، وهذا يفضى بالطبع إلى أن تجىء الصور البيانية التى وقعت فى قصيدته ملموسة ، لاأثر فيها لغوص على معنى ، أومبالغة فيه ؛ على أنه لايتخلى عن السمة العامة لشعره وإن ألح عليه الوصف أن يشبه أو يوشى وصفه ببعض التصوير البيانى ...

ونضع — بين يديك — أنماطاً من هذا التصوير على سبيل المثال لا الحصر ، ورد فى ثنايا (الدامغة) :

---

(١) مجلة الشعراء أكتوبر ١٩٧٨ ص ٣٩ .

١ ــ فمن أنماط التشبيه فيها :

بلى فارفض دمعك غير نزر كما عينت بالسرب الطبابا

وقوله .

كأن بنى طهية رهط سلمى حجارة خارىء يرمى كلابا
رأين سواده فدنون منه فيرمين أخطأ أو أصابا

وقوله :

أنا البازى المدل على نمير أتحت من السماء لها انصبابا

٢ ــ ومن أنماط الاستعارة فيها :

أعد الله للشعراء منى صواعق يخضعون لها الرقابا

ومنها :

ستهدم حائطى قرماء منى قواف لا أريد بها عتاباً

ومنها :

شياطين البلاد يخفن زأرى وحية أريحاء لى استجابا

٣ ــ ومن ألوان الكناية فيها قوله :

لنا البطحاء تفعمها السواقى ولم يك سيل أوديتى شعابا

ومنها :

وذى تاج له خرزات ملك سلبناه السرادق والحجابا

ومنها :

أجيران الزبير برئت منكم فألقوا السيف واتخذوا العيابا

وقصيدته ــ بعد ذلك ــ لا تخلو مما يشبه الجناس اللفظى فى بعض أبياتها، وسبيله إليه أحياناً هو التوكيد ، وذلك كقوله مثلا :

ووجد قد طويت يكاد منه ضمير القلب يلتهب التهاباً

وقوله أيضاً :

لقد غر القيون دما كريماً ورحلاً ضاع فانتهب انتهاباً

ومنه كذلك :

وقد فعست ظهورهم بخيل تجاذبهم أعنتها جذاباً

وعلى أية حال فالقصيدة لاتتكىء على ألوان المحسنات البديعية فما كان (جرير) من أنصار التحبير اللفظى ، يحشد نفسه له أويفرغ همه من أجله ...

نظرات ناقدة

حول جرير وشعره

عرضنا في أثناء الحديث عن (شعر جرير) لبعض القضايا التي أرجأنا الفصل فيها حتى نعرف (بجرير) — فلا شك أن الإلمام بحياته يضوىء بعض هذه القضايا ويكشف عن كثير من جوانبها وآفاقها ...

ولن نتعرض (لجرير) إلا بمقدار ما يعين على تفهم شعره .. ونقده .

فأما « جرير فقد كفانا مؤنة التعريف به « ابن قتيلة » حيث ذكر عنه مايلى :—

« هوجرير بن عطية بن حذيفة ، ولقب « حذيفة » الخطفى ، لقوله :

وعنقا باق الرسيم خيطفا

وهو من بنى كليب بن يربوع ، وكان عطية أبو (جرير) مضعوفاً وأم « جرير » أم قيس بنت معبد من بنى كليب بن يربوع ... وعمر نيفا وثمانين سنة ، ومات باليمامة ، وكان يكنى « أبا حزرة »(١) .

ويذكر « ياقوت » أنه ولد بقرية « أثيفية » قرية لبنى كليب بن يربوع بالوشم من أرض « اليمامة »(٢) . كما يتفق المؤرخون على أن وفاته كانت بعد موت الفرزدق بأشهر قلائل ، وأن جريراً حين بلغه خبر موته قال :

هلك الفرزدق بعد ما جدعته ليت الفرزدق كان عاش قليلا

ثم أطرق طويلا وبكى فقيل له ياأبا حزرة ، ما أبكاك ؟ قال : بكيت لنفسى ، إنه والله قل ما كان اثنان مثلنا أو مصطحبان أو زوجان إلا كان أمد مابينهما قريباً ، ثم أنشأ يقول مرثياً له :

فجعنا بجمال الديات ابن غالب وحامى تميم عرضها والبراجم
بكيناك حدثان الفراق وإنما بكيناك إذ نابت أمور العظائم
فلا حملت بعد ابن ليلى مهيرة ولا شد أنساع المطى الرواسم (٣)

(١) الشعر والشعراء ١ / ٤٦٤ .
(٢) معجم البلدان ١ / ١١١
(٣) الشعر والشعراء ١ / ٤٨٢ .

ويختلفون بعد ذلك فى السنة التى توفى فيها ، فابن خلكان يرى أنه توفى فى سنة ١١٠ ، (١) بينما يرى « الأصفهانى » أنه مات بعد يوم كاظمة الذى وقع فى سنة ١١٢ * هـ .

ومهما يكن من شيء فالراجح أنه توفى بعد ذلك بقليل .

وقد تزوج جرير بأكثر من امرأة ، وشعره فى ذلك سجل ، يطلعنا على أزواجه ومنهن (أم حكيم) التى ذكرها فى قوله :

إذا عرضوا عشرين ألفا تعرضت ... لأم حكيم حاجة هى ما هيا

لقد زدت أهل الرى عندى مودة ... وحببت أضعافاً إلى الموالياً (٢)

و (أم حكيم) هذه : تدعى أمامة وكان الحجاج قد خلعها على جرير هبة له على أماديحه فيه ، وإن ذكرت بعض المصادر الأخرى أن (أم حكيم) هى التى كانت تسمى (خالدة) ومنها أنجب (جرير) ابنه (حزرة) وليس يعنينا أن نمضى مع المصادر والمراجع لنقف على رأى فى هذه القضية قدر ما يعنينا أن نقف على تباشير شعره ، والملابسات التى اكتنفته .

تفجرت موهبة (جرير) الشعرية لأول مرة ، حين ترامى إلى سمعيه هجاء (غسان السليطى) فى بيته وقومه على أثر مشاحنة وخصومة قامت بين فرعى يربوع : سليط وكليب . وكان هجاء (غسان) مما فتق لسانه بقوله :

لا تحسبنى عن سليط غافلا ... ، إن تعش ليلا بسليط نازلا

لا تلق أقرانا ولا صواهلا ... ولا ترى للنازلين عاجلا

أبلغ سليط اللؤم خبلا خابلا ... أبلغ أبا قيس وأبلغ باسلا

إنى لهد لهم مساحلا ... زغبة والشحاج والقنابلا (٣)

---

(١) وفيات الأعيان ٣/١٧٤ .

* انظر (الأغانى فى ترجمته)

(٢) الأغانى ١٩ / ٤٥ .

(٣) نقائض جرير والفرزدق لأبى عبيدة ٣ ط (ليدن) .

وكأنما شاء الله أن تتفتح عيناه على هذا التهاجى الذى اندفع فى تياره حتى يلود عن قومه، ويدفع عنهم الغوائل... وتتجدد المواقف وتكثر الملاحاة ويضطر جرير – وعوده لما تدب فيه الخضرة بعد – إلى أن ينازل شعراء عديدين ، منهم البعيث المجاشعى ، بعد أن سطا أناس من (ذهيل) من (يربوع) على إبل للبعيث فساقوها ، وما إن عثر عليها (البعيث) فى أيديهم حتى عرض بما كان قد حدث من ملاحاة بين (جرير) وغسان بن ذهيل وأراد (البعيث المجاشعى) للفتنة أن يذر قرنها ، حين أراد أن يدخل بين بنى يربوع ، فكان أن أنشد جرير :

مهلا بعيث فأن أملك فرتنا   حمراء أثخنت العلوج رداما

ثم تمتد ملاحاته إلى (الفرزدق) ، بعد أن نزل الفرردق مع النوار عليه وهما قافلان من الحج حوالى سنة ٦٤ هـ ، واعتذر إليه جرير عما بدر فى شعره ، وأعجبت النوار بشعر (جرير) ونسيبه ، وقالت : قاتله الله ، ما أرق منسبته ، وأشد هجاءه ، فقال الفرزدق وقد دخلت الغيرة قلبه (أترين هذا ؟ أما انى لن أموت حتى أبتلى بمهاجاته (١) .

وتمر الأيام لتعد كمينا آخر للأخطل ، وتنصب له الشباك فيقع فيها ، وكان بمنجاة عن الدخول فى ذلك التلاحى الذى اشتد أواره واندلعت نيرانه ، وتسامع الناس به ، ذلك أنه قال لابنه مالك : انحدر إلى العراق ، حتى تسمع منها ، وتأتينى بخبرها ، فالقيهما فاستمع ثم أتى أليه فقال : جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر. فقال الأخطل فجرير أشعرهما وقال :

إنى قضيت قضاء غير ذى جنف   لما سمعت ولما جاءنى الخبر
أن الفرزدق قد شالت نعامته   وعضه حية من قومه ذكر

---

(١) طالع جرير حياته وشعره (١٣٠ وما بعدها) .

ثم قدم الأخطل (الكوفة على بشير بن مروان) والتقى ثلاثتهم عنده : جرير ، والفرزدق والأخطل ، وأخذ يغرى بين الشعراء على عادته ، «فقال للأخطل : احكم بين الفرزدق وجرير فقال : أعفنى أيها الأمير ، فقال : احكم بينهما ، فاستعفاه بجهده فأبى إلا أن يقول فقال : هذا حكم مشئوم ، قال : الفرزدق ينحت من صخر ، و(جرير) يغرف من بحر فلم يرض (جرير) بذلك ، وكان سبب الهجاء بينهما ، فقال جرير :

ياذا العباية إن بشرا قد قضى ألا تجوز حكومة النشـــوان
فدعوا الحكومة لستم من أهلها إن الحكومة فى بنى شيبـــان
قتلوا كليبكم بلقحة جارهم باخزر تغلب لستم بهجـــان (١)

ونستبعد ماذكره صاحب (الأغانى) من أن التهاجى بين جرير والأخطل وقع بينهما قبل أن يرى أحدهما صاحبه ، وإن عاد فقال إنهما التقيا عند (عبد الملك بن مروان) (٢) لأن ، الواقع يدحضها ، فالثابت تاريخياً أن (بشربن مروان) كانت له مجالس أدبية يلتقى فيها مع الشعراء المرموقين ، وحيث إن (الأخطل) كان مفتونا بشعر جرير بعد أن بلغه لايستبعد أن يكون قد قدم إلى الكوفة ، ويشر على ولايتها وهناك وقع ما وقع بينه وبين جرير فى محضر (بشربن مروان) ويؤيد ذلك مارواه (أبو عبيدة) جامع النقائض من دخول الأخطل الكوفة (٣) .

ومن الطبيعى أن يكون لهذه المعركة أشياع ، يؤازرون من أطراف الخصومة هذا أو ذاك ، فكان راعى الإبل (عبيد بن حصين) أحد هؤلاء الذين ظاهروا (الفرزدق) على جرير بتحريض من راوية شعره ونديمه (عرادة النميرى) وتلحظه فى قوله :

---

(١) طبقات فحول الشعر لابن سلام ١ / ٤٧٤ .
(٢) انظر الأغانى ٧/ ٦٠ وما بعدها .
(٣) أنظر النقائض ٨٨٠ .

يا صاحبي دنا الأصيل فسيرا غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

وقال عرادة :

رأيت الجحش جحش بني كليب تيمم حوض دجلة ثم هابا

واتفق أن لقى جرير عبيد بن حصين ، وعذله على إقحام نفسه في تلك الملاحاة التي حدثت بينه وبين الفرزدق وأذعن (الراعي) إلى مقالة (جرير) وأراد أن يعتذر إليه على ملأ من الناس في المسجد الجامع بالبصرة ، ولما سمع ابنه (جندل) بذلك جاءه من خلفه ، فضرب بالسوط مؤخر بغلته ، فزحمت (جريرا) زحمة أوقعته على كفيه في الأرض ، ونثرت قلنسوته ، ثم قال له : إنك لواقف على كلب بني كليب (١) :

وتطور الموقف إلى غير ما كان يأمل جرير وما كان ليسكت عن إهانة تتلوها أخرى ، مما حدا به إلى أن يعيش هذه الأحداث بشاعريته الموهفة وإحساسه المشحوذ ، وعاطفته المكلومة ، فكان أن أنفق ليلته في معالجة الموقف بما يتدفق على خاطره من شعر هز الدنيا به في (المربد) ، حيث راح ينشد دامغته على مسامع الراعي والفرزدق بجانبه :

أقلي اللوم عاذل والعتابـــا وقولي إن أصبت لقد أصابـــا

وقد سمتها العرب (الفاضحة) ، كما كان جرير يسميها الدماغة (١) والمنصورة ، ومن هذه الأسماء تدرك إلى أي مدى كان حظ هذه القصيدة

---

(١) انظر الشعر والشعراء ١ / ٤١٥ .
(٢) خزانة الأدب للبغدادي ١ / ٧٤ .

من المد والانتشار . وحسبها من ذلك أن صاروا يتناشدونها، بعد أن كانت ملهاة إلى أن صارت الألسنة تتناول (عبيداً) وابنه بالسب والمشأمة (١).

ولم يقف (الراعى) من القصيدة موقف اللائذ بالصمت ، المستسلم لما انتابه من جراثها من لعنات صبت عليه ، بل حاول أن ينقض الدامغة بما هجابه (جريرا) من قوله :

أتانى أن جحش بنى كليب تعوض حول دجلة ثم هابا
فأولى أن يظل العبد يطفو بحيث ينازع الماء السحابا

على أن هذا الهجاء لم يلبث أن تفرق بددا ، فلم يكتب له النجاح أو الذيوع ، على العكس من (الدامغة) التى سار بذكرها الركبان ، وكانت نغما مرنا على الشفاه ، وكان على (الفرزدق) هو الآخر ، ولا سيما بعد أن لفحه قيظ «الدامغة» بأبياتها الكثر أن يدلى بدلوه وأن يتصدى لجرير بنقيضته التى منها :

أنا ابن العاصمين بنى تميم إذا ما أعظم الحدثان نابا

ولا نود الاستقصاء أكثر من ذلك ، فيكفى من القلادة ما أحاط بالعنق ، ومن السوار ما أحاط بالمعصم . ولا يتصورن أحد أن وراء هذه الملاحاة الطويلة ، والسجال الذى لم يهدأ نفساً قوية تقتحم المصاعب، وتجسر على مواجهة الأهوال والشدائد ، لا ، فمن يدرس حياة (جرير) والملابسات التى اكتنفته فى نشأته وطفولته وشبابه يعجب أن يوزع «جرير» سلاحه فى كل مكان ، أو أن يصول فى كل ميدان، وقد يكون لذلك عوامله وأسبابه ، ومن بينها أن (جريرا) كان من الضعة بما أحسه من وخز واستشعره من هوان ، ولولا خشيته أن يراق ماء وجهه ،

---

(١) طالع الأغانى ٢٠ / ١٦٩ .

[أو ألا تبقى له بقية من حياة لكف لسانه عن الخوض فى التهاجى . . ويدل على ذلك ما يأتى :

(أ) ما وصف به من عفة ، على الرغم من حسن تشبيهه ، مما جعل (الفرزدق) يقول : ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعرى ، وما أحوجنى إلى رقة شعره(١) .

(ب) ما يروى عنه من نزوع إلى الدين ، وهذا « أبو عمر بن العلاء » يقول :

كنت قاعدا عند (جرير) وهو يملى :

ودع أمامة حان منك رحيل إن الوداع لمن تحب قليل

فمرت به جنازة ، فترك الإنشاد ؛ وقال شيبتنى هذه الجنازة ، قلت: فلأى شىء تشتم الناس ؟ قال : يبدءونى ثم لا أعفو(٢) .

(ج) شعوره بعقدة النقص لانحداره من قبيلته الدنيا « كليب » ومن ثم ترى فى شعره ما يؤكد ذلك ، من أمثال فخره ببنى رياح (أخى كليب) حين قال :

أتوعدنى وراء بنى رياح كذبت لتقصرن يداك دونى

إذ قال له « بنو كليب » عندئذ وقد أحسوا بهذه المنقصة : ما هجانا أحد قط بأشد مما هجوتنا به ، حين استوى لك أن تقول : وراء « بنى كليب » فرغبت عن آبائك إلى أعمامك(٣) .

---

(١) الشعر والشعراء ١/٤٦٦ .

(٢) ذاته نفس الصفحة .

(٣) الموشح للمرزبانى ١٢٠ .

(د) ما يروى عنه من قصص ، تؤيد استمساكه بالقيم ، وحرصه على الأخلاقيات الفاضلة ، ويذكر « أبو عبيدة » عنه أن خامس الراشدين « عمر بن عبد العزيز » رضى الله عنه أراد اختبار الفرزدق « وجرير » عن طريق جارية بعث بها إلى كل منهما ، وكم كان (الفرزدق) فاجرا إذ أراد أن يثب على الجارية وهى عنده ، ولهذا نفاه (عمر) عن « المدينة » فى حين أن (جريرا) أبى أن تغسل الجارية رأسه ، وقال عمر لساعتها : عجبت لقوم يفضلون « الفرزدق » على « جوير » مع عفة بطن « جرير » و « فرجه » وفجور الفرزدق وخبثه(١) .

ولعل فى هذا ما يفصح أو يجيب عن بعض القضايا التى عالجناها سلفا ، كقضية هجائه الشعبى الذى بلور ما كانت النزعة الشعبية ترنو إليه وتتطلع وتفويعات أخرى ، يتكفل هذا العرض بالإجابة عنها جواباً شافياً بعد أن أرجأنا الحديث عنها إلى هذا الوقت .

وتبقى بعدئذ قضية تتصل بشعر « جرير » عامة ، وبالدامغة بخاصة وأين يقف النقاد من ذلك ؟

والإجابة عن هذا التساؤل ينبغى أولا أن نعرض لآراء النقاد القدامى فى « شعر جرير » على النحو التالى :

١ — عده (ابن سلام) فى الطبقة الأولى من الإسلاميين ، ونقل أخباراً تدل على رسوخ قدمه فى مضمار الشعر منها ما قاله :

سألت « بشارا العقيلى » عن الثلاثة (يعنى الأخطل والفرزدق وجريرا) فقال : لم يكن الأخطل مثلهما ، ولكن ربيعة تعصبت له ، وأفرطت فيه ، فقلت : فجرير والفرزدق ، قال : كان (جرير)

---

(١) انظر النقائض ٣٩٦ .

يحسن سربا من الشعر لا يحسنها الفرزدق . وفضل « جريرا عليه » (١) : وصورة أخرى يذكر عنه قوله :

وسألت الأسيدى أخا بنى سلامة عنهما (أى الفرزق وجرير) فقال : بيوت الشعر أربعة : فخر ، ومديح ، ونسيب ، وهجاء ، وفى كلها غلب (جرير) ، فى الفخر بقوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وفى المدح قوله :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وفى الهجاء قوله :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وفى النسيب قوله :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وإلى هذا يذهب أهل البادية (٢) .

والواقع أن هذه نظرة نقدية مسرفة ، فإذا صح أن تلك الأبيات المنخولة من قصائد (جرير) تضرب بحظ من الجمال والروعة فلا ينبغى أن يكون بها جرير سباقا أو غلابا ، ذلك لأن لكل شاعر مايستجاد من شعره ، ومع ذلك لايمكن أن ترتقى هذه الأبيات المستجادة ، لكى تكون هى المعيار الذى على أساسه يتفاضل الشعراء ، ويتفاوتون منزلة أو مرتبة .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/٣٧٤ .

(٢) ذاته ١/٣٧٩ وما بعدها .

ولعل فيما ذكره الدكتور (شوقى ضيف) مايصيب شاكلة الصواب حين ذكر أن (جريرا) كان لايبارى فى جميع الموضوعات التى تتصل بدقة الأحاسيس ورقة المشاعر، وهو لذلك يسبق الاخطل والفرزدق فى الرثاء والغزل، وعواطف الزوجية والأبوة، وهوكذلك يسبقهما فى الهجاء الخالص إذا كان يعرف كيف يريش سهامه، ويسددها إلى نحور خصومه، محملا لها كل مايمكن من سموم، وليس لأحدهما موضوع يتقدم به عليه سوى ماكان من فخر الفرزدق، إذ لم يكن لجرير مادة يبنى منها فخره، إلا أن يرتفع عن عشيرته إلى (يربوع) أو إلى تميم عامة، حينئذ تند عنه أبيات رائعة كقوله:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

ولكنه على كل حال يقصر عن (الفرزدق) فى هذا المجال (١).

وواضح مافى هذا الكلام من نظرية نقدية تتوخى النصفة، وتتحرى الدقة، وربما ضرب النقاد القدامى على وتر واحد، إذ أجمعوا أو كادوا على استحسان هذا البيت: (إذا، غضبت.. إلخ) لأن النظرة القديمة كانت جزئية، ليس فيها من الشمولية مايقضى بتقديم شاعر على نده فى قصيدة بأسرها.. ويشهد لذلك أن الفرزدق ذاته سأله سائل عن (جرير) فقال: أعن ابن الخطفى تسألنى، ثم تنفس حتى قلت: انشقت حيازيمه، ثم قال: قاتله الله، فما أخشن ناحيته، وأشرد قافيته، والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها والشابة على أحبابها، ولكنهم هروه فوجدوه عند الهراش نابحاً وعند الجراء قارحاً؛ وقد قال بيتاً لأن أكون قلته أحب إلى مما طلعت عليه الشمس.

---

(١) تاريخ الأدب العربى – العصر الإسلامى ٢٨٨.

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا(١)

ويبدو أن هذا البيت من (الدامغة) أطار لب الخصوم الذين وقفوا إلى جوار الفرزدق ، فما لبث أن شمر بعضهم عن ساعد الجد ، وراح يتأهب للثأر من (جرير) فى هذا البيت ، وممن هجا (جريرا) ونقض قصيدته العباس بن يزيد الكندى حيث قال مدافعاً عن الراعى .

ألا رغمت أنوف بنى تميم قساة التمر أن كانوا غضابا
لقد غضبت على بنو تميم فما نأت بغضتها ذبابا
لو اطلع الغراب على تميم وما فيها من السوءات شابا(٢)

ويذكر الأصفهانى فى غير هذا المعرض ، وقد تطرق للموازنة بين جرير والفرزدق فيرى أن الذين قدموا الفرزدق على جرير فباعتبار ما يطلبونه من جزالة اللشعر وفخامته وشدة أسره ، وأما من كان يميل إلى أشعار المطبوعين وإلى الكلام السمح السهل الغزل فيقدم (جريرا)(٣) وممن أثنى على شعر جرير كذلك من النقاد القدامى أبو عمرو بن العلاء ذاك الذى قرنه إلى الأعشى من شعراء الجاهلية قائلا .

هما بازيان يصيدان ما بين العندليب إلى الكركى (٤)

على أن من النقاد و الشعراء من تعصب اعلى (جرير) ، وأسرف فى الطعن عليه ، ذريعة إلى تقديم (الفرزدق) عليه ، وليس هذا من النقد فى شىء ، فما كان النقد مغرضاً ، يقدم شاعرا على سواه من أجل قصيدة بعينها ، فالعمل الفنى يسبق اسم صاحبه كائناً من كان ، ومن أمثلة هذا

---

(١) الأغانى ٧/٣٩
(٢) ذاته ٧/٤٣
(٣) ذاته ١٩/٤٨
(٤) الشعر والشعراء ١/٤٦٥ .

النقد مايسوقه (المرزبانى) عن البحترى الشاعر العباسى المعروف ، إذ أورد عنه قوله :

لا أريد أن أكلم من يفضل جريرا على الفرزدق ، ولا أعده من العلماء بالشعر ، فقيل له :

وكيف وكلامك أشد انتسابا إلى كلام (جرير) منه إلى كلام(الفرزدق) ! قال : كذا يقول من لا يعرف الشعر ، لعمرى أن طبعى بطبع جرير أشبه ، ولكن من أين لجرير معانى (الفرزدق) وحسن اختراعه ؟ جرير يجيد النسيب ، ولا يتجاوز هجاء الفرزدق بأربعة أشياء : بالقين ، وقتل الزبير ، وبأخته (جعثن) ، وامرأته النوار (١) .

وعجيب أن يصدر هذا الكلام عن (البحترى) ، ولئن كان صادقا وله كل الحق فى وصفه بإجادة النسيب — لقد هفا فى أن جعل جريرا ضيق العطن فى شعره ، ولاسيما هجاؤه الذى رمى (الفرزدق) ، والذى لاشك فيه أن الهجاء مما يستلزم أن يقف الشاعر أمام المعانى التى تضع من قيمة المهجو وتزرى بقدره ، وليس ثمة من المعانى مايضائل من قيمة الهجو أكثر من المعانى التى ذكرها جرير ، وجعلها محاور للدخول فى أهاجيه المقذعات ومع ذلك فلم يفت (جرير) أن يهجوه بدنياه التى ارتكس فيها ، وأشيعت عنه ، أولا تراه ، يقول معرضاً بالفرزدق فى حادث إخراجه عن المدينة ونفيه منها :

هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا ... مداخل رجس بالخبيثات عالم

لقد كان إخراج الفرزدق عنكمو ... طهورا لما بين المصلى وواقم(٢)

فقول البحترى — إن صح عنه — يحمل دليل تهافته ...

---

(١) الموشح ١٢٤ .

(٢) الشعر والشعراء ١ — ٤٩٠

ويأخذ بعض النقاد – على « جرير » أبياتاً وقعت فى شعره ، وهذا « ابن قتيبة » يعيب قوله فى « بنى » الفدوكس رهط الأخطل :

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا

فقد قيل له : يا أبا حزرة ، ما وجدت فى « بنى تميم » فخراً تفخر به عليهم حتى فخرت بالخلافة ، لا والله إن صنعت فى هجائهم شيئا . (١) ويرى الدكتور « محمد نعمان » أن (جريرا) لم يهف فى قوله ، أو يتلو تعبيره بما تحيط به قيس وبنو أمية من إعزاز ، وبما يحس به من نقص هو الذى جعله ينسى نفسه ، يتكلم كأنه ابن عم الخليفة حقاً (٢) .

كذلك أخذ بعض النقاد على « جرير » قوله :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام(٣)

فقد نقدته (سكينة بنت الحسين) رضى الله عنها قائلة له : سوءة لك : جعلتها صائدة القلوب حتى إذا أناخت ببابك جعلت دونها حجابا ، ألا قلت :

طرقت صائدة القلوب فرحبا نفسى فداؤك فادخلى بسلام

هذا « جرير » فى شعره ، ودامغته وتلك ، بعض آراء النقاد فى شعره ولعلها تمثل اتجاهات نقدية مختلفة ..

---

(١) ذاته ١–٤٦٩ (٢) جرير حياته وشعره ٢٠٣

(٣) المحاسن والمساوىء للبيهقى ٢٣٣ ط : أوربا

القصيدة الثالثة

من شعر « سوار بن المضرب »

« فى الحنين واللهفة »

– ٣ –

لسوار بن المضرب(١)

« فى الحنين واللهفة »

١ – ألم ترنى وان أنبأت أنى … طويت الكشح عن طلب الغوانى
٢ – أحب عمان من حبى سليمى … وما طبى بحب قرى عمان
٣ – علاقة عاشق وهوى متاحا … فما أنا والهوى متدانيان
٤ – تذكر ما تذكر من سليمى … ولكن المزار بهـــا نآنى

---

(١) لم نعثر – فيما وقع بين أيدينا من مراجع ومظان – لسوار على ترجمة مستفيضة ، تمثل بعداً من أبعاد الشاعر الحياتية والفنية . . واسترعتنا هذه القضية ، ذلك أن « الأصمعى » حين ضمن « أصمعياته » هذه القصيدة لم يفعل ذلك عن عفوية أو عشوائية : فمثل « الأصمعى » الراوية الثبت يعرف لسوار بن المضرب منزلته ومكانته بين الشعراء .

كل ما وقع لنا من تراجم لايعدو أن يكون نتفا يسيرة كالذى جاء فى « الكامل » للمبرد من قوله عنه :

كان أحد من هرب من الحجاج « سوار بن المضرب » ففى ذلك يقول :

أقاتلى الحجاج إن لم أزر له … دراب ، وأترك عند هند فؤاديا
فان كان لا يرضيك حتى تردنى … إلى قطرى ما إخالك راضيا
إذا جاوزت درب المجيزين ناقتى … فباست أبى الحجاج لمـــا ثنانيا
أيرجو بنو مروان سمعى وطاعتى … وقومى تميم ، والفلاة ورائيا

ومرة أخرى يذكره « المبرد » فى الكامل تحت عنوان « ولاية الحجاج » العراق ، وأمره المهلب والخوارج بما لا يخرج عن اللمحة السابقة . (الكامل ٢–١٠٢ ، ٣–٣٦٧)

وفى «الأصمعيات » وشرح ديوان« الحماسة » للمرزوقى وجازة عن حياة سوار تتحرك على المحور عينه ، ولذلك رأينا إغفالها ، مكتفين بما قدمنا ، لإن الإشارات فى هذه المراجع تلتقى حول فكرة هرب الشاعر من الحجاج ، ثم تلوذ بالصمت :

٥ — فلا أنسى ليالى بالكلندى   فنين ، وكل هذا العيش فان
٦ — ويوما بالمجازة يوم صدق   ويوماً بين ضنك وصوعحان
٧ — ألا يا سلم سيدة الغوانى   أما يفدى بأرضك تلك عان؟
٨ — وما عانيك يابنة آل قيس   بمفحوش عليه ولا مهان
٩ — أمن أهل النقا طرقت سليمى   طريداً بين شنظب والثمان
١٠ — سرى من ليله حتّى إذا ما   تدلى النجم كالأدم الهجان
١١ — رمى بلد به بلدا فأضحى   بظمأى الريح خاشعة القنان
١٢ — تموت بنات نيسها ويغبى   على ركباتها شرك المتان
١٣ — يطوى عند ركبة أرحبى   بعيد العجب من طرف الجران
١٤ — مطية خائف ورجيع حاج   شموذ الذيل منطلق اللبان
١٥ — قذيف تنائف غبر وحاج   تقحم خائفا قحم الجبان
١٦ — كأن يديه حين يقال سيروا   على متن التنوفة غضبتان
١٧ — يقيسان الفلاة كما تغالى   خليعا غاية يتبادران
١٨ — كأنهما إذا حث المطايا   يدا يسر المتاحة مستعان
١٩ — سبوتا الرجع ما ثرتا الأعالى   إذا كل المطى سفيهتان
٢٠ — وهاد شعشع هجمت عليه   توال ما يرى فيها توان
٢١ — أعاذلتى فى سلمى دعانى   فانى لا أطاوع من نهانى
٢٢ — ولو أنى أطيعكما بسلمى   لكنت كبعض من لا ترشدان
٢٣ — دعانى من أذاتكما ولكن   بذكر المدحجية عللانى
٢٤ — فإن هواى ما علمت سليمى   يمان إن منزلها يمان
٢٥ — تكل الريح دون بلاد سلمى   وسرات المنوقة الهجان
٢٦ — بكل تنوفة للريح فيها   حفيف لا يروع التراب وان
٢٧ — إذا ما المسنفات علون منها   رقاقا أو سماوة صحصحان
٢٨ — يخدن كأنهن بكل خرق   وإغساء الظلام على رهان

٢٩ – وإن غورن هاجرة بفيف ... كأن سرابها قطع الدخان
٣٠ – وضعن به أجنة مجهضات ... وُضعن لثالث علقا وثان
٣١ – وليل فيه تحسب كل نجم ... بدا لك من خصاصة طيلسان
٣٢ – نعشت به أزمة طاويات ... نواج لا تبين على اكتتان
٣٣ – تثير عوازب الكدرى وهنا ... كأن فراخها قمر الأفانى
٣٤ – يطأن خدوده متشمعات ... على سمر تفض حصى المتان
٣٥ – سرين جميعه حتى تولى ... كما انكب المعبد للجران
٣٦ – وشق الصبح أخرى الليل شقا ... جماح أغر منقطع العنان
٣٧ – وما سلمى بسيئة المحيا ... ولا عسراء عاسية البنان
٣٨ – ألا قد هاجنى فازددت شوقا ... بكاء حمامتين تجاوبان
٣٩ – تنادى الطائران بصرم سلمى ... على غصنين من غرب وبان
٤٠ – فكان البان أن بانت سليمى ... وبالغرب اغتراب غير دان
٤١ – ولو سألت سراة الحى عنى ... على أنى تلون بى زمانى
٤٢ – لنبأها ذوو أحساب قومى ... وأعدائى فكل قد بلانى
٤٣ – بدفع الذم عن حسبى بمالى ... وزبونات أشوس تيحان
٤٤ – وأنى لا أزال أخا [حفاظ ... إذا لم أجن كنت مجن جان

• • •

(تحليل المفردات)

١ ــ النبأ : الخبر ، يستعمل حيث كان الخبر مهما ، والكشح : مابين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، ويقال : كشحه ، طعنه فى كشحه ، كما يقال للوشاح : كشح لوقوعه عليه .

ومن المجاز : طوى كشحه على الأمر : أضمره وستره ، وطوى كشحه عنى : تركنى وقطعنى ، وكشح الظلام ، وكشح الضوء : أدبر ، قال « ذو الرمة » .

فلما ادرعن الليل أوكن منصفا لما بين ضوء كاشح وظلام(١)

٢ ــ الطى : الشأن والعادة ، والطية : الجهة التى يطوى إليها البلاد ، ولقيته بطيات العراق : نواحيه وجهاته ، ومنه قولهم : أين طيتك وأمتك ؟

٤ ــ المزار : مكان الزيارة ، أو دارها حيث تقيم ، ونآنى : نأى عنى .

٥ ــ الكلندى : موضع .

٦ ــ المجازة وضنك ، وصوحان : أسماء مواضع .

٨ ــ العانى : الأسير .

٩ ــ شنظب (بضم الشين والظاء) : واد بنجد لبنى تميم ، والثمان هضبات ثمان فى أرض تميم .

١٠ ــ سرى : من السرى : السير ليلا ، ومنه قوله تعالى :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى »(٢) وكذلك قوله جل شأنه مخاطبا (لوطا عليه السلام) .

---

(١) انظر « أساس البلاغة » (كشح)

(٢) آية (١) سورة « الإسراء »

« فأسر بأهلك بقطع من الليل »(١) .

الأدم • جمع « آدم » وأدماء ، وهى الإبل أشرب بياضها سواداً ، والأديم من كل شيء ظاهره ، ومنه قول « الأعشى » يصف الأرض •

يوما تراها كشبه أردية الـ ـ خمس ويوما أديمها نغلا

وعلى صلة بهذا المعنى كان قولهم : ليس بين الدراهم والأدم مثله ، يريدون بين العراق واليمن ، لأن تبايع أهلهما بالدراهم والجلود ، قال (أوس بن حجر) •

وما عدلت نفسى بنفسك سيدا سمعت به بين الدراهم والأدم(٢)

والهجان • البيض

١١ – ظمأى الريح . كنى بالظمأ هنا عن الجفاف والجدب ، والقنان جمع قنة ، وقنة الجبل أعلاه ، وخاشعة القنان : يابسة محلة لم تمطر .

١٢ – بنات نيسبها : الطرق الصغار تتشعب من الطريق الأعظم ، ونيسب كحيدر : الطريق المستقيم الواضح كالنيسبان ، أو ما وجد من أثر الطريق ، والنمل إذا جاء واحداً أثر آخر ، وطريق للنمل ، والتغبية : الستر .

والمتان : جمع متن : الصلبة ، والشرك : الطريق التى لا تخفى عليك ولا تستجمع لك ، ومن المجاز مضوا على شراك واضح

١٣ – أرحبى : نسبة إلى « أرحب » • قبيلة من همدان ، أوفحل أو مكان ، ومنه : النجائب الأرحبيات ، والعجب : أصل الذنب . ومؤخر كل شيء ، والأول هو المراد ، والجران : جران البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره وجمعه (جرن) بضم أوله وثانيه .

---

(١) سورة (هود) الآية ٨١

(٢) انظر لسان ١٤–٢٧٣ وما بعدها ، وراجع المعجم الكبير ١٥٤

١٤ – الرجيع من الإبل : ما رجعته من سفر إلى سفر ، يقول « ذو الرمة » :

رجيعــة أســفار كأن زمامهــا شجاع لدى يسرى الذراعين مطرق(١)

والحاج : جمع حاجة ؛ والشموذ : من قولهم : شمذت الناقة : إذا رفعت ذيلها ، والفعل من باب ضرب ومصدره : شمذا ، وشماذا ، وشموذا ، وهي شامذ من شوامذ وشمذ ، واللبان : الصدر ، ومن شعر « عنترة » يصف فرسه ساعة الهيجاء والطعان :

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم

١٥ – التنائف : جمع تنوفة : المفازة والأرض الواسعة البعيدة الأطراف ، أو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس وإن كانت معشبة ، وتقحم : ركب الشدائد .

١٦ – غضبتان : الغضبة : ما غلظ من الصخر ، ومثله : الغضب ، والرواية الجيدة * فى البيت : غضبيان ، وفى النوادر : « يريد : يريد يدى امرأتين غضبيين » .

١٧ – تغالى : من المغالاة : المراماة بين طرفين متسابقين لينظر أيهما أبعد غلوة ، ومن المجاز : الدابة تغلو فى مسيرها ، والدواب يغتلين ويتغالين ، قال الأعشى :

وأتعابى العيس المراقيل تغتلى مسافة ما بين النجير فصرخدا

وقال « ذو الرمة » :

فألحقنا بالحى فى رونق الضحى تغالى المهارى سدوها ونسيلها (٢)

---

(١) أساس البلاغة . (رجع)

* الأصمعيات ٢٤١ .

(٢) أساس البلاغة (غلو) .

١٨ ــ المتاحة : يقال . متح الماء كمنع : نزعه ، وبئر متوح : يمد منها باليدين على البكرة ، وليل متاح : طويل ، ويسر المتاحة سهلها ، ومستعان : استعين ، فكان أسرع له .

١٩ ــ السبوت : من السبت : وهو سير للإبل سريع والفرس الجواد ، والرجع : رد الدابة يديها فى السير ، ومار : اضطرب وتحرك ، ومنه جاء قوله تعالى « يوم تمور السماء موورا »(١) ، والسفيهة : الخفيفة .

٢٠ ــ الهادى : العنق ، ويقال : ضرب هاديته : عنقه ، وسمى العنق هاديا لتقدمه ، والشعشع : الطويل ، والتوالى : الأعجاز ، ومنه ما قالوه فى المثل : ليس توالى الخيل كالهوادى ، ومن المجاز : ذهبت : تلية الشباب أى بقيته ، لأنها آخره الذى يتلو ما تقدم منه ، وعليك تليه من الدين ، قال « ابن مقبل » .

ياحر أمست تليات الصبا ذهبت فلست منها على عين ولا أثر(٢)

٢١ ــ دعانى : اتركانى وشأنى .

٢٣ ــ الأذاة : المراد بها : العذل واللوم ، والمذحجية : نسبة إلى (مذحج) كمجلس : أكمة ولدت مالكا وطيئا عندها أمهما فسموا مذحجا لذلك ، عللانى : يقال : تعلل بالأمر : تشاغل ، وبالمرأة تلهى ، والتعلة والعلة والعلالة بالضم : ما يتعلل به .

٢٥ ــ سرات المنوقة : المذللة ، يقال جمل منوق : إذا ذلل حتى صار كالناقة.

٢٦ ــ لا يروع : لا يفزع .

٢٧ ــ المسنفات : المتقدمات فى سيرها ، يقال : أسنف القوم أمرهم : أحكموه ، وبعير مسناف : يقدم رجله ــ قال :

---

(١) الطور آية (٩) .

(٢) أساس البلاغة (تلو) .

ومسناف يقدم كل سرج يصير دفتيه على القذال(١)

والرقاق : الأرض السهلة المنبسطة ، ومن شعر (حسان بن ثابت) رضى الله عنه الذى قدمناه :

بها النخل والآطام تجرى خلالها جداول قد تعلو رقاقا وجرولا

وصحصحان : أرض مستوية واسعة .

٢٨ ــ يخدن : من الوخد ، وهو ضرب من السير ، وهو سعة الخطو فى المشى ، قال « النابغة » :

فما وخدت بمثلك ذات غرب خطوط فى الزمام ولا لجون

ويقال : وخد البعير يخد وخدا ووخدانا : أسرع .

والخرق ومثله الخرقاء : القفر ، والأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح ، وأغسى الليل : أظلم .

٢٩ ــ غورن : من التغوير : القيلولة ، قال « امرؤ القيس » يصف الكلاب والثور :

وغورن فى صل الغضى وتركنه كقرم الهجان القادر المتشمس(٢)

٣٠ ــ مجهضات : مسقطات ، وقوله : وضعن لثالث أى لشهر ثالث.

٣١ ــ الطيلسان : ضرب من الأكسية ، والكلمة مثلثة اللام معربة عن تالسان ، ويقال فى الشتم يابن الطيلسان : إذا أريد وصفه بأنه أعجمى ، وخصاصته : فرجته .

٣٢ ــ طاويات : جمع طاوية : ضامرة ، والطاويات هنا : النوق ، والاكتنان : البياض .

٣٣ ــ العوازب : البعيدات ، والكدرى : لون من القطا ، وهنا : نحوا من نصف الليل أو بعد ساعة منه كالموهن ، والقمر : جمع أقمر وقمراء

---

(١) نفسه . (٢) لسان العرب ٦/٣٤٢ .

من [القمرة : بياض فيه غبرة ، والأفانى : جمع أفانية ، كثمانية وهو ضرب من النبت .

٣٤ — متشمعات : جادات ، ويستعمل على نقيض هذا المعنى ، كما قال « أبو ذؤيب » :

فلبثن حينا يعتلجن بروضة فيجد حينا فى العلاج ويشمع

والأول أنسب ، لأن السياق يقتضيه ، وتفض الحصى : تفرقه .

٣٥ — المعبد : البعير الذى عبد وذلل ، والجران : باطن العنق .

٣٦ — جماح أغر : جماح فرس أغر ، والغرة فى الفرس معروفة .

٣٧ — العسراء : التى تعمل بشمالها ، والعاسية : البابسة .

٣٩ — الصرم : القطيعة .

[٤١ — السراة : جمع سرى : الوجيه الشريف ، يقول « الأفوه الأودى » :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

٤٢ — بلانى : عرفنى وخبرنى .

٤٣ — الزبونة : الدفع والمنع ، وقوله وزبونات أشوس تيحان : يعنى أن أحسابه ومفاخره تدفع غيرها ، والأشوس : من يرفع رأسه عجبا وخيلاء والتيحان ، بكسر الياء المشددة وفتحها : الذى لا يزال يقع فى بلية ويقال فرس يتاح ومتيح وتيحان : يعترض فى مشيه ويميل على قطربه .

٤٤ — اجن : الترس ، يقول عمر بن أبى ربيعة :

فكان مجنى دون من كنت أتقى ثلاث شخوص : كاعبان ومعصر

* * *

« فى جو القصيدة »

القصيدة لشاعر يدعى « سواد بن المضرب » ...

ويتراءى من الجو الذى يهيمن عليها أن ثمة دافعا معينا ، وموقفا خاصا ألح على ذهن الشاعر ، واستبد بخاطره ، وخامر مشاعره حتى استقر فى طواياها .

ولعل القصيدة ترسم ملامح لموقف عاشه الشاعر ، يتمثل فى رحيله عن صاحبته (سليمى) مكرها بعد أن طاردته أسباب قامت تدمغه ، ولم تكن لتدور بخلده ، فقد كان لايتصور بحال أن الأيام ستترصده وتنصب له الشباك ، ثم تضطره إلى أن يضرب عصا التسيار فيهيم على وجهه شريدا طريدا تتلقفه الصحارى والسهوب ، وهو الذى عاش — ما عاش — لياليه الحالمة مع صاحبته ، يرتشفان معا كئوس المحبة حتى الثمالة ، لكنها طبيعة الأيام حين تقسو فتقلب ظهر المجن .

طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفوا من الأحزان والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب فى الماء جذوة نار

وإذا كانت الأيام قد تجهمت له فإن ذلك لم يرنق عاطفته تجاه صاحبته ولم يقو — على مرارته — أن يصرفه على سليمى ، فما تزال عاطفته تحتدم فيها الأحاسيس الحارة حيث يحن إليها ويذكره بمواجده وأشواقه المبرحة حتى لقد صارت (عمان) وقراها محرابا مقدسا يحج إليه بفكره ويطفر شوقه بين الحين والحين ، كى يعانق هذه الأماكن بما لها من سطوة على نفسه ونقش فى وجدانه ، وكأنى به يهتف مع مجنون بنى عامر » .

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى ... ولكن حب من سكن الديارا(١)

---

(١) ديوان مجنون ليلى ١٧٠ .

ولله أمثال تلك الأحاسيس الطاغية التى يعيش بها المحب الواله إذ تتحول الحياة من حوله إلى عالم وردى آخر : يحاول — فيه — ما وسعه أن يكون طوع من يهوى ورهن الإشارة منها ، وكم هتف بهذا المعنى غير شاعر ، وهذا أحدهم يقول :

مالى مرضت فلم يعدنى عائد منكم ويمرض كلبكم فأعود
وأشد من هذا على صدودكم وصدود كلبكم على شديد

هكذا تبدو ملامح (سوار بن المضرب) فى تجربته الشعرية التى حملها إلينا أبياته ، فقد راح يستعرض لحظات السعادة فتمثلت له معاهد حبيبته وأخذ يجيل خياله بين تلك المعاهد ، فمرة يرى نفسه .(بالكلندى) ويوما يراها بين (صوحان وضنك) ، يذكر ذلك وشبح الرحيل يلازمه ويستحثه على أن يجتاز هذه المواضع بشخصه وإن بات قلبه نابضا بالقدسية لهذه الأماكن خافقا بحبها وذكراها ، ولكن أتراه — مع ذلك — يستطيع أن يعدل عن الرحيل ؟ .

ما كان بوسعه أن يفعل ، وهو الذى تسلل تحت جنح الليل البهيم يسلم نفسه إلى بلد ليلفظه بلد آخر مما كابد بسببه صنوفا من العذاب واستشعر من جرائه وعثاء ذلك الرحيل ، ويا له من رحيل سلك إليه المسارب والدروب ! لجأ إليه وهو يلوذ بالفرار مما كان يتهدده ويطلبه فى كل مكان ، وليس يسع الهارب — فى مثل هذه الحالة — الا أن يكون بمنجاة عن الهلاك ما استطاع ولو كان دون هذه الغاية العقاب الكأداء التى تعترض سبيله ؛ ولهذا مضى لايلوى على شئ يقطع المهامه والفيافى ، ويجتاز الصحارى والقفار كأنما أطلق ساقه للريح أملا فى أن يحقق بغيته وينال مأربه .

ويبدو على ما هى العادة أن هناك من كان يسفهه ويأخذ عليه تشبثه (بسلمى) صاحبته فى وقت له من شدة الوطأة عليه ما يكاد يطيش بلبه ،

فما له ويسلمى آنئذ ؟ لطالما قرعت آذانه عبارات التعريض به تارة والتصريح طورا غير أنه أصم مسامعه ، فنبضه إنما هو فى التغلل بذكر صاحبته ، أو ليس التغلل واحة ظليلة يهرع إلى ظلها المحرورون الذين أبلوا عذب العشق وعذاباته ، وقامت دون أمانيهم أسباب عصفت بما كانوا يتطلعون إليه من الرحيل واللقاء ؟ .

عبر عن ذلك أبو فراس الحمدانى فقال :

معللتى بالوصل والموت دونه إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

ومن الطبيعى أن هوى هؤلاء المحبين يكون حيث تحل صواحبهم فى أى زمان ومكان .

هواى مع الركب اليمانين مصعد جنيب وجثمانى بمكة موثق

تواضعت على ذلك شرائع المحبين .

وتلفتت عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

على أن الحياة ومظاهرها لا تعدو أن تكون صدى مرنا بالنسبة لما يعتمل فى نفوس المحبين ، فاذا الريح تبدو لينة رخاء فى الصحارى الشاسعة دون بلاد من يهوى على الرغم من رحابة المكان وانديا حه ، وليس أدل على هذا من محاولة النوق قطع هذه الأماكن الوعرة بسرعة غريبة وتوقفها عن المسير فيها وقت الهاجرة والقيلولة .

وكان أمرا من الحتم أن يمتطى الشاعر ظهر ناقته وأن يحتويه الليل و يظل النجم عليه من على يرقبه ، ولما أن جاوز نخوم بلاد سامى حث ناقته الضامرة لتمضى قدما ، واستجابت الناقة فاخترقت ظلمات الليل الكثيفة التى لفت الكون وحينئذ تفرق الحصى كل متجه ، ثم ظلت على هذه الصورة من الموالاة والانطلاق الحثيث إلى أن انفلق عمود الصبح ، وكان الظن بها أن يكون

السرى قد نال منها منالا ، بيد أن ذلك لم يحدث فقد بقيت على فتائها فى السير تجمح كما لو كانت فرسا انقطع عنانه عنه . .

وتراءت سلمى لذهن الشاعر وخياله صورة مضيئة من الحسن والبضاضة والرخص ، واستلهم أن الرحيل عنها صار أمرا لازما لا مناص منه ولاسيما بعد أن ترامى إلى سمعه شجو طائرين يقفان على غصنين من غرب وبان ، وكم للشعراء من رؤية طبعوا عليها فى مثل هذه الحالة ، أولا ترى إلى «حميد بن ثور الهلالى» يقول :

إذا نادى قرينته حمام جرى لصبابتى دمع سفوح
يرجع بالدعاء على غصون هتوف بالضحى غرد فصيح
هفا لهديله منى إذا ما تغرد ساجعا قلب قريح
فقلت حمامة تدعو حماما وكل الحب نزاع طموح(١)

وبإحساس الشاعر استكنه الحقيقة ، فأدرك أن البان رمز للبين الوشيك وأن الغرب ينطوى على الغربة الأكيدة وكان أن تحققت هذه النبوءة وتلك النظرة .

وإذا كان البين قد تجسد فى رحيله عنها فانه مايزال ماضيا على العهد مقيما عليه يشهد أعداؤه على سواء بما له من قيم فى مضمار الفضيلة ، تؤكد إنسانيته ، وحسبه أن سخر ماله ولم يضن به ناظرا فى ذلك إلى قول الشاعر :

إذا كان بعض المال ربا لأهله فإنى بحمد الله مالى معبد

وإلى قول الآخر :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه لابارك الله بعد العرض فى المال

---

(١) ديوان (حميد بن ثور الهلالى) ٦٥ تحقيق عبد العزيز الميمنى .

وفضلا عن هذا فله من صلة الرحم ومواساة الفقير وحفظ الجوار أمثلة ندية تؤكد خلقه النبيل وشيمه الحميدة ، فإذا أضيف إلى ذلك حفاظه الذى يتصف به ويبذله لغيره منافحا عنه يدفع به الردى والمكاره فأية صورة إذاً من الروعة تسجل للشاعر كريم أياديه !!

هكذا كان (سوار) إنسانا ترسخت فيه معانى المروءة والعراقة والمجد والاعتقاد .

« تأملات فى القصيدة »

— ١ —

تدور قصيدة (سوار بن المضرب) حول هذه المعانى :

(أ) لوعة ممضة ، ووفاء على العهد .
(ب) بين الماضى والحاضر .
(جـ) مكابدة ولأواء .
(د) التعلل خير من العذل .
(هـ) خواطر وشجون .
(و) ترفع وإباء ، ومروءة وشموخ .

وهذه المعانى يأخذ بعضها بحجز بعض ، فليس بينها ثغرة أو اضطراب بل هى كل متماسك ، وجداول تلتقى عند فكرة واحدة : كيف كان الشاعر بين مقام هادىء بالأمس يحظى فيه بالهناء واللذاذة ، ورحيل مضن يعيشه اليوم يكابده ، ويلتمع بين أبيات القصيدة بيت واحد قد يميط اللثام عن تلك التجربة الشعرية النابضة بأبعادها ، هو قوله :

أمن أهل النقا طرقت سليمى طريدا بين شنظب والثمـــان

فواضح من البيت أن الشاعر اضطر إلى الرحيل عن (سلمى) وديارها اضطرارا ، فقد هرب من الحجاج بن يوسف الثقفى قائلا فى ذلك :

أقاتلى الحجاج أن لم أزر لـه دراب وأترك عند هند فؤادى

ولما كان الشاعر طريدا يهيم على وجهه ، فى البيداء ، وذلك أمر يستتبع بالضرورة أن يغادر أماكن الذكرى ومعاهد الحبيبة جعلت هذه القصيدة نفثة من نفثاته الثائرة المكلومة ، وشحنة نفسية دافقة أفرغها ابتغاء أن تخفف عنه مايبوء به من غربة ومنأى وتعقب فى طلبه يلح عليه الحجاج .

* * *

ومن ثم فالقصيدة التى بين أيدينا نغمة شجية أرسلها الشاعر فى زحام تلك الأحداث والمواقف ، كما يشير إلى ذلك البيت الذى أومأنا إليه (١) .

وتبلغ اللوعة بالشاعر مداها ، فإذا هو ضارع يغلف نبرته بالتساؤل من مثل قوله مرة .

أما يفدى بأرضك تلك عان ؟

ومرة أخرى : أمن أهل النقا طرقت سليمى طريدا ؟

وهى تساؤلات تعكس الهم الدفين الذى يعتلج بين ضلوعه وحناياه ، وفى مطاويها إهابة أن تخف لنجدته واستنقاذه من مخالب الأيام الضوارى .

فإذا انتقل الشاعر ليعرض أمامنا صورة من مجاهداته رأيناه يقدم لنا عرضه فى إطار فنى تتسق أصباغه وألوانه فى لون وصوت وحركة .

أجل لم يدع الشاعر أداة فنية إلا استعانها فى تصوير حاله .

فسراه ليلا ، والنجم يتدلى لبرقبه ، والمنية التى اندفعت بلبانها وشمذ ذيلها ، والريح الظمأى كل أولئك مما يجسد فكرته .

ويمضى الشاعر ليعلنها مدوية تملأ الآفاق :

أن ثمة من يعذله على موقفه من (سليمى) وفى ذلك دليل على أن هؤلاء العاذلين يريدون له الموت الزؤام ، وأنما دعوة تدعوه إلى أن يتناساها فى غمرة الأحداث لا تعدو أن تكون صيحة فى واد .

وإذا كان المثل العربى يقول ، ويل لشجى من الخلى ، فإن موقف الآخرين من هذا العذل ترجمة لذلك المثل ، ولو أن أولئك اللاحين عرفوا كيف تكون العلاقة بين المحبين لأدركوا أن مايثيرونه من العذل هو عين الهراء .

---

(١) انظر الأصمعيات ٢٣٩ .

تراه يلح على هذا المعنى .

أعاذلتى فى سلمى دعـــانى فانى لا أطاوع من نهانـــــى

ويحاول فى شموخ رفض هذه الفكرة فيقول :

دعانى من أذاتكمـــا ولكن بذكر المذحجية عللانـــــى

ثم تعاوده وسوسات أحلامه فى العودة إليها ، غير أنه سرعان ، ماينظر إلى الإعنات والجهد اللذين تعرض لهما فى أثناء هذه الرحلة اللغوب ، فيقنع منها بسفارة الفكر والخيال إلى صاحبته حيث تقيم .

ويأبى الشاعر إلا أن يكون على العهد بها وفيا مع غربته وتنائيه ، يتمسك بجميل المروءة وكريم الطباع ، وفى ذلك وحده ما يرفعه مكانة فى نفسها ويسمو به منزلة عندها .

— ٢ —

والذى يمعن النظر فى القصيدة يرى مايلى .

(أ) كثرة التشبيهات وبخاصة فى الأبيات التى تعرضت للوصف .

— تدلى النجم كالأدم الهجان .

— كان يديه ... غضبتان .

— يقيسان الفلاة كما تعالى خليعا عاية ..

— كانهما إذا حث المطايا يدا يسر امتاحة .

— يحدن كانهن بكل خرف ..... إلخ .

— كأن سرابها قطع الدخان .

— كأن فراخها قمر الأفانى .

فعلام تدل استفاضة التشبيهات ، وعم ينبىء تعددها ؟

يؤكد (أبو هلال العسكرى) أن التشبيه يزيد المعنى وضوحاً ،

ويكسبه تأكيداً : وهذا ماأطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ولم يستغن أحد منهم عنه (١) ثم يضيف إلى هذا قوله :

والتشبيه يقبح إذا جاء على صور معينة من إخراج الظاهر فيه إلى الخافى والمكشوف إلى المستور والكبير إلى الصغير ومما وقع على ألسنة بعض الشعراء قول النابغة :

تخدى بهم أدم كأن رحالها علق أريق على متـون صوار

فلا شك أن (النابغة) هنا مسخ صورة التشبيه ، وذلك حين أخرج الظاهر فيه إلى الخافى .

ولا يخفى أن ألوان التشبيه الواردة فى قصيدة (سوار) تجنح إلى التجسيد وتكتسى أبراد التشخيص .

وقد يثور هنا سؤال فحواه : أيعود الشاعر فى هذا التصوير إلى هدأة من النفس — بعد ميلاد الخلق الأدبى عنده — فيضع الزخارف والتحسينات ، أم أن الصورة الأدبية توافى الشاعر كاملة .

ومن الضرورى أن نذكر فى هذا الصدد موقف بعض النقاد من هذه القضية ... لقد أصاب الإمام (عبد القاهر الجرجانى) كبد الحقيقة حين صدر عن رؤية نقدية رائعة ، تتمثل فى الربط بين عناصر العمل الفنى وأجزائه ، وتفاعلها فى بوتقة واحدة ، فقد نادى بضرورة أن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها فى بعض . ويشتد ارتباط ثان منها بأول وأن يحتاج فى الجملة إلى أن تضعها فى النفس وضعاً واحداً ، وأن يكون حالك فيها حال البانى يضع بيمينه هنا فى حال ما يضعه بيساره هناك .

وفى حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين(٢) .

---

(١) الصناعتين ٢٤٩ .

(٢) دلائل الإعجاز فى علم المعانى ٧٤ .

فعبد القاهر إذن يرى الصورة الأدبية كياناً واحداً لا يتجزأ ولا يتجزأ .

وعلى عكس ذلك كانت نظرة الشاعر الخليفة (عبد الله بن المعتز) الذى ارتأى أن الذهن ينصرف إلى الإطار الخارجى للشعر ، وهو ما يقوم على الصنعة والتزويق ، ومؤكدا أن ذلك الإطار الخارجى ليس جزءا من المعنى (١) .

ويبرى من المعاصرين المحدثين (كروتشيه) فينحى باللائمة على هذا الاتجاه الأخير فى النظر إلى الخلق الأدبى فيقول : « وقد كان للبلاغة تاريخ طويل منذ بلغاء اليونان إلى أيامنا هذه ، ولاتزال تدرس فى المدارس ويعنى بها فى الكتب بل المباحث اللغوية التى تزعم لنفسها أنها عملية ، فضلا عن الأفكار العلمية بطبيعة الحال ، ولو أنه فقد فى أيامنا هذه كثيراً من قوته الأولى ، وقد قبله أناس من أهل الذكاء والحصافة ، لا أدرى أعن كسل أم لقوة التقاليد ، وتركوه يعيش قرونا طويلة ، ولم تكد تحاول الثورات النادرة التى قامت فى وجهه أن تشيد لثوريتها مذهباً ، وأن تنتزع الخطأ من جذوره ، ولم يقتصر شر البلاغة التى تقول بوجود لغة مزخرفة مختلفة عن اللغة العادية ، وسامية عليها ، لم يقتصر شرها على ميدان فلسفة الفن بل تعداه إلى ميدان النقد »(٢) .

ويقول فى أعقاب ذلك :

« ليس التعبير والجمال مفهومين اثنين ، فما هما إلا مفهوم واحد ، يمكن أن تدعوه بأحد اللفظين على السواء ، إن الخيال الفنى لا يكون بدون جسد ، ولكنه ليس بدينا ، ولباسه من ذاته ، لا يلبس شيئاً غيره ، وليس إذن بمزخرف »(٣) .

وعلى ذكر ما تنطوى عليه صور التشبيه فى قصيدة (سوار بن المضرب)

---

(١) انظر البديع ٥٧ وما يليها .
(٢) المجمل فى فلسفة الفن ٦٤ .
(٣) نفسه ٦٥ .

يجدر أن نقف وقفه نناقش فيها بعض آراء المعاصرين الذين يرفضون أن يكون الغرض من التشبيه والباعث عليه البيان والوضوح ، والحسن والقبح ، والقلة والكثرة ... الخ حيث يذكر الدكتور (مصطفى ناصف) أن ذلك لم يصب من الحق مقطعا ، (والحق القريب أن الشاعر إنما يختار من الأشياء ما كان قوى العلاقة بنفسه ، وبعبارة حديثة ما كان راسبا فى (اللاشعور) فنحن لا نشبه الأقل بالأكثر ، ولا نلحق ناقصا بزائد ، لأننا — أصلا — لسنا فى مقام صفات موضوعية مشتركة بين الأشياء ، وليست المسألة تفاوتا فى الوضوح أو الدنو أو العظم أو القوة ، ليست المسألة فى التشبيه أن المشبه أقل أو أدنى أو أضعف من المشبه به ، لأن وجه الشبه لاتعلق له بأوصاف فضلا عن أن تكون كثيرة أو عالية أو عظيمة ، وفى كل حال ندرك أننا نمزج الأقل بالأكثر أو الأوهى بالأقوى ، والأدنى بالأعلى لا نعطى الأشياء قيمة فنية ، ففى الفن تخلع الأشياء عن أنفسها هذه الطبيعة السخيفة المقحمة ، وتبرأ من التصنيف الذى تسيطر عليه مقررات جماعية ، واعتبارات عملية ، وحين نقبل على الشعر ننسى الدنو والعلو ، والعظم والقوة ، فكل أولئك معايير وأثمان تعمى علينا السبيل الصافى المتحرر من تقدير يخلعه المنطق أو المجتمع العملى(١) .

ويبدو لى أن هذا غبن لجهود البلاغيين الذين حاولوا — مقدورين — أن يفرقوا بين ألوان التشبيه وأنماطه ، وأن يضعوا لذلك الحدود والمعايير .

ومع اليقين بأن البلاغيين ، وقد اعتصرت أفكارهم النظرة البلاغية الصارمة فى التفريق والتفتيق والتشقيق ، عكست على أعمالهم دقة المنطق وحدته ، مما مسخ صنيعهم فى بعض الرؤى أو شاهه على الأقل يجمل ألا نعصف بما قدموا من أحكام ، وسودوا من آراء ، وأقول بأن الشاعر — فى تشبيهه — يختار من الأشياء ما كان راسبا فى اللاشعور لايتنافى مع لفتات

---

(١) الصورة الأدبية ٥٨ .

بعض البلاغيين السابقة ، فالشاعر إنما يحيا فى إطار بيئة تحكمه ، ومجتمع يستمع له ، وإلا فلو قصرنا النظرة على ما رآه الدكتور (مصطفى ناصف) لصح أن يعيش الشاعر فى برج عاجى ، بعيدا عن قضايا أمته ، وما يستلهمه من تجارب تفضى به إلى أن يصبها فى قوالب مشدودة إلى أمته و مجتمعه وبيئته .

ثم إن عملية الإبداع الفنى للشعر محكومة بسياج معين ، لا يمكن أن نغفل فيه رؤية المجتمع وعاداته وتقاليده ، أليست هذه هى الخيوط الأساسية التى ينسج على منوالها وقفته الشاعرية ، فماذا يمنع أن يكون ما ترسب فى شعوره هو ما أفصح عنه البلاغيون فى لمسات فنية . وتقنين محكم يصدر عن الحياة وإليها يعود ، على أن البلاغيين حين أجهدوا قرائحهم فى استخلاص بعض صور معينة من التشبيه كان دافعهم إلى ذلك ترشيد الفن ليقوم بوظيفته ، وتلك رؤية يمتزج فيها الفن بالنظرة الاجتماعية حيث لا ينبغى أن يكون هناك انفصام وتمزق بينهما ...

ونعود لنقرر أن كثرة التشبيهات وتعدد أنماطها قد ينجم عن وضوح رؤية الشاعر لأبعاد تجربته وعناصرها و ارتباطها بما يسود مظاهر الحياة من حوله ، حيث تعل منها وتنهل ....

(ب) التعويل على التصوير الاستعارى . كما جاء فى قوله :

— رمى بلد به بلدا
— تموت بنات نيسبها
— نعشت به أزمة طاويات
— وشق الصبح أخرى الليل شقا

والواقع أن طبيعة « الشعر » تتناغم مع التصوير الاستعارى مثلما تتسق أيضاً مع صور الكناية سواء بسواء ، ولسنا بحاجة إلى أن نلفت إلى تلك الأخيرة ، فقد تضمنت القصيدة بعضاً منها كقول (سوار) :

– فأضحى بظمأى الريح خاشعة القنان

– ويغبى على ركبانها شرك المتان

– بقيسان الفلاة ..... إلخ

وقد يكون هذا التناغم والتناسب راجعاً إلى أن التصوير الخيالى – أياً كان لونه – يسهم فى إثارة الانفعال ، وبعث التأثير ، وهذه هى وظيفة الشعر ، وإن تفاوتت درجات الخيال فى العمل الأدبى بصفه عامة ..

وفى تعليق رائع على هذه القضية الأخيرة يذكر المرحوم الأستاذ «أحمد الشايب» قائلا : « أما الصور الخيالية كالتشبيه، والمجاز ، والكناية ، والمطابقة ، وحسن التعليل فإنها تكون فى الشعر أشد قوة وأروع جمالا ، وهى فى النثر أميل إلى الإيضاح والإيجاز . ثم التأثير أيضاً ، لذلك كانت الكناية والاستعارة أكثر وروداً فى النظم ، وكان التشبيه أكثر دوراناً فى النثر ، وهذا الفرق يقوم على أن وظيفة الشعر التأثير ، وبعث الانفعال أولا ، ووظيفة النثر الإفادة وتغذية العقل أولا ؛ فاحتاج الشعر إلى هذه الصور الخيالية القوية لتكون وسيلته الصالحة ؛ واعتمد عليها النثر حين تفيده فى الدقة والوضوح ؛ فإذا غلا النثر ؛ وسلك سبيل الشعر فى استخدام الأنواع البيانية عنده كان ذلك منه بعداً عن طبيعته الأولى ؛ ونزوعاً إلى طبيعة الشعر (١) .

هذا التصوير يختلف من بيئة إلى بيئة ؛ ومن عصر إلى آخر ؛ وكلما كان الشاعر صادق العاطفة جاء تصويره فى أى معرض بدا دالا على الالتصاق بالبيئة ؛ ومعانقة ما يتحرك على أرضها لا فى رؤية عادية ؛ وإنما فى نظرة عميقة خصبة ، وإذا نظرت فى الشعر العربى وجدت أن شعراء الجاهلية وصدر الإسلام كانوا أصدق عاطفة ممن أتى بعدهم ؛ والسبب فى ذلك أن النفوس كانت كبيرة ؛ والعواطف قوية ؛ لم يتلفها بعد الترف

---

(١) الأسلوب للمرحوم أحمد الشايب ٦٨ .

والضعف وغير ذلك من الصفات التى تطرقت إلى الأمة فى عهد الدولة العباسية وما بعدها من العصور التى أولع فيها الشعراء بالعبث والمغالطة والمغالاة الكاذبة ، والتلاعب بالألفاظ والخيالات الفاسدة ، وشعر الأمة مرآة حياتها ، فإذا كانت نفوس أفرادها حقيرة كان شعرها ألفاظاً مرصوفة ميتة ، ليس فيها عاطفة(١).

ويحاول بعض* الباحثين. وهو يتناول الصورة الشعرية — أن يركز على العلائق الداخلية فى بناء الجملة الشعرية ، ويعنى هذا أن التشبيه يمكن أن يكون الدافع إليه الحيلة ، كما يمكن — ما لم تراع هذه العلائق الداخلية — أن تكون الاستعارة قائمة على المماحكة اللفظية ، ويعرض لهذه الأبيات فى ضوء رؤيته :

غصبوا الصباح فقسموه خدودا واستنهبوا قضب الأراك قدودا
واستودعوا حدق المها أجفانه فسبوا بين ضراغما وأسودا
لم يكفهم حمل الأسنة والظبا حتى استعاروا أعينا ونهودا

ويقرنها إلى أبيات أخرى تعتمد كذلك على مقارنات فكرية متمحلة على حد ما رأى :

يامن حوى ورد الرياض بخده وحكى قضيب الخيزران بقده
دع عنك ذا السيف الذى جردته عيناك أمضى من مضارب حده
كل السيوف قواطع إن جردت وحسام لحظك قاطع فى غمده

ولست أدرى أين هذه المماحكة فى الأبيات الأولى ، أفى استعارة الصباح واغتصابه حتى تبدو خدود الهيف مشرقة وضيئة كنوره ، أم فى استعارة قضب الأراك الذى استنهبوه للقدود ، أم فى استعارة حدق المها للأجفان ؟ .

(١) ديوان عبد الرحمن شكرى مقدمة الجزء الثالث ٢٠ .

* ومنهم : الدكتور « رجاء عيد » الذى نعرض لمناقشة قضيته التى عرض لها فى مجلة « الثقافة » يوليه (١٩٧٥) تحت عنوان (فى الصورة الشعرية)

وماذا فى هذه الاستعارات من مآخذ ؟ قد يقال إن الشاعر لعله أجهد نفسه فى التلفيق بينها حتى بدا التواؤم متصنعا على ما تردد فى الأبيات ، ولكن الشعر العربى يعرف مثل هذا التصوير ، فتشبيه القد بقضيب الأراك والخد بالصباح ، والعين بحدقة المهاة جرت فى الشعر العربى من قديم ، وكلنا على ذكر من هذا البيت .

فعيناك عيناها وجيدك جيدها سوى أن عظم الساق منك دقيق(١)

أفإذا وردت الصورة على نسق الأعراف السائدة عنهم فى إطار استعارى رفضت بحجة أن التلفيق والمماحكة يطلان من الأبيات على ما قررته تلك النظرة ؟

ومع هذا لم يغب عن فطنة نقادنا استهجان بعض الصور المألوفة أو المأنوسة متى شابها ما قد يذهب بطلاوتها أو روائها ، ولعل من مكرور القول ونافلته أن نشير إلى موقفهم من هذا البيت :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا غمزوها بالأكف تلين

وكيف رأوا الصورة زرية مستهجنة فى هذا المقام ، على العكس من صورة (بشار) فى بيته :

إذا قامت لصحبتها تثنت كأن عظامها من خيزران(٢)

حيث جاءت مقبولة لطيفة لا نبو فيها ولا هجنة .

وبقليل من التأمل تكاد تلحظ أن هذه الصورة تظل من الأبيات الأخيرة التى حكم عليها الدكتور (رجاء عيد) بالتمحل وهى الأبيات التى أوردها تالية لما ناقشناه الآن منها . . ومن الموضوعية العلمية أن نصف نقادنا القدامى الذين كانوا على وعى بكل ما يبدد طاقة الاستعارة ، ويهدر قيمتها ،

---

(١) ديوان مجنون ليلى ٢٠٧ .

(٢) راجع « الموشح » ١٤٢ .

وهل عابوا الاستعارة إلا لأنها جاءت غريبة، أو التوى بها القصد والغاية ؛ وانظر إلى ما يقوله (أبو هلال العسكرى) — على سبيل المثال لا الحصر — فى هذا المعرض :

« ومن سوء الاستعارة، وليس لحسن الاستعارة وسوء الاستعارة مثل يعتمد ، وإنما يعتبر ذلك بما تقبله النفس أو ترده، وتعلق به أو تنبو عنه، فمما تنبو منه قول « علقمة الفحل » :

وكل قوم وإن عزوا وإن كرموا عريفهم بأثافى الشر مرجوم

أثافى الشر بعيد جداً .

فأما القبيح الذى لا يشك فى قباحته فقول الآخر :

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقق

ومن عجيب هذا الباب قول بعض شعراء عبد القيس :

ولما رأيت الدهر وعرا سبيله ، وأدى لنا ظهرا أجب مسلما

وجبهة قرد كالشراك ضئيلة وصعر خديه وأنفا مجدعا

ثم يعقب بقوله :

ولا أعرف متى رأى هذا الدهر جبهة كالشراك مع هذا الذى عدده، فجاء بما يضحك الثكلى(١) .

لاشك أن هذه اللفتات البارعة تقوم على الرؤية الحصيفة ، والذوق السليم ، فهل إذا تحدثنا عن الصورة الأدبية أو الشعرية ضربنا صفحا عن النظر فى قيمة هذه الملاحظة ، وهى مما تثرى الفكر وتخصب الذوق ؟

وقد عرض لهذا الجانب الدكتور (محمد بدوى عبد الجليل) الذى رأى أن مصطلحات البلاغيين ليست من الجمود فى شئ ؛ فالغاية التى

(١) الصناعتين ٢٠٩ وما بعدها .

كانوا يتوخونها إنما هى الكشف عن الجانب اللفظى حينا ، والجانب المعنوى حينا آخر وهم بهذا استطاعوا أن يضعوا للفكر معايير فى صورة مصطلح أو آخر(١) :

تلك لمحات سراع عن التصوير فى القصيدة ،

(ج) ولا مناص من المضى مع القصيدة وقوفا على ما تخللها من لفتة ، أو سرى إليها من هنة ، وانسياقا مع ذلك تلوح لنا أبيات .

ولو سألت سراة الحى عنى على أنى تلون بى زمانى
لنبأها ذوو أحساب قومى وأعدائى فكل قد بلانى

ولعل مرد ذلك أن البيت الأول مفتقر إلى الثانى من حيث إن تتمة المعنى تتوقف عليه ، ومثل ذلك قد يكون معيباً عند بعض النقاد . .

ولاستكناه الحقيقة حول هذه القضية خليق بنا أن نجلى آراء النقاد فيما يمس هذا المعنى ويتعلق به .

وبداءة نقرر أن المعنى الذى يطرقه الشاعر ينبغى أن يتمثل فى البيت الواحد ، وما لم يستطع الشاعر أن يضمن بيته المشتقل هـــذا المعنى عد ذلك من المآخذ عليه ، وهو ما أطلقوا عليه : « التضمين » :

وقد عرفه (أبو هلال العسكرى) بقوله :

أن يكون الفصل الأول مفتقرا إلى الفصل الثانى ، والبيت الأول محتاجا إلى الأخير كقول الشاعر :

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح
فطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

---

(١) انظر المجاز وأثره فى الدرس اللغوى د . محمد بدوى عبد الجليل .

وقد تسمى استعارتك الأنصاف والأبيات من شعر غيرك ؛ وإدخالك إياه فى أثناء أبيات قصيدتك تضمينا، وهو حسن ، كقول (جحظة) :

أصبحت بين معاشر هجروا الندى ... وتقبلوا الأخلاق عن أسلافهم
قوم أحاول نيلهم فكأنما ... حاولت نتف الشعر من آنافهم
هات اسقنيها بالكبير وغنني ... ذهب الذين يعاش فى أكنافهم(١)

ويناقش (ابن الأثير) صاحب « المثل السائر » قضية التضمين مناقشة تفصيلية ، فيرى أن من « التضمين » ما يكون حسنا ، ومنه ما يكون معيبا ، والتضمين الحسن عنده أن يضمن الكلام الآيات والأخبار النبوية ، ويقع على صورتين ، إحداهما : ما أسماه بالتضمين الكلى ، والثانية : التضمين الجزئى .

وحين يأتى إلى « التضمين » المعيب الذى نريده هنا يبرى قائلا :

وأما المعيب عند قوم فهو تضمين الإسناد ، وذلك يقع فى بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنثور على أن يكون الأول منهما مسندا إلى الثانى ، فلا يقوم الأول بنفسه ولا يتم معناه إلا بالثانى ، وهذا هو المعدود من عيوب الشعر ، وهو عندى غير معيب ، لأنه إن كان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على الثانى ، فليس ذلك بسبب يوجب عيبا ، إذ لا فرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر ، وبين الفقرتين من الكلام المنثور فى تعليق إحداهما بالأخرى ، لأن الشـــعر هو كل لفظ موزون مقفى دل على معنى ، والكلام المسجوع هو كل لفظ مقفى دل على معنى ، فالفرق بينهما يقع فى الوزن لا غير ، والفقر المسجوعة التى يرتبط بعضها ببعض قد وردت فى القرآن الكريم فى مواضع منه ،

(١) الصناعتين ٤٢ وما يليها .

أن يضمن الكلام الآيات والأخبار النبوية ، ويقع على صورتين ، إحداهما : ما أسماه بالتضمين الكل ، والثانية : التضمين الجزئي .

فمن ذلك قوله عز وجل فى سورة «الصافات» : (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم إنى كان لى قرين يقول أئنك لمن المصدقين ، أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمدينون ، فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض فلا تفهم كل واحدة منهن إلا بالتى تليها ، وهذا كالأبيات الشعرية فى ارتباط بعضها ببعض ولو كان عيباً لما ورد فى كتاب الله عز وجل ، ومما ورد من ذلك شعراً فقول بعضهم :

ومن البلوى التى ليس لها فى الناس كنه
أن من يعرف شيئاً يدعى أكثر منه(١)

ولا ينبغى أن ندع هذا الموضوع دون أن ننبه إلى لفتة فنية تتعلق بابن الأثير ، تلك أنه قد صرح أن فى بيتى (سوار بن المضرب) لطيفة بلاغية تتمثل فى الاعتراض بين لو وجوابها فى قوله : ولو سألت سراة الحى لنبأها ... إلخ ، وهو اعتراض من فائق ألوان الاعتراض ونادرها(٢) .

ونظرة (ابن الأثير) فى تقديرى ، نظرة موضوعية ، تنبئ عن انفساح النظرة ، وسلامة الذوق ؛ فالذى يتملى موقف النقاد من التضمين المعيب يدرك — بعد إمعان فكر ، وإعمال روية — أنهم عدوه معيباً تأكيداً على القول بوحدة البيت فى القصيدة الشعرية ، وهو ملحظ من ملاحظ النقاد القدامى ، يحتل من فكرهم النقدى مساحة بارزة ...

والقول بذلك فوق أن فيه افتئاتا على الحقيقة يعد فى نظرنا إسرافاً فى الحكم على قضية يجمل بالنقد الموضوعى أن يعيد إليها النظرة التقويمية من جديد نصفة للتراث وللعاملين فى ميدانه ، وليس أدل على ذلك من أن

---

(١) انظر المثل السائر ٢/٣٤٢ (بتصرف)
(٢) نفسه ٢—١٨٧ (مع اختلاف فى بعض ألفاظ البيتين)

النقاد القدامى كانت لهم نظرات ذكية ، بنوها على ما ينشدونه من رؤية للقصيدة الشعرية من قديم ، واعتبارهما كلا متماسكاً يرتكز على الوحدة .

وهذا (المرزبانى ت ٣٨٤ هـ) يقول حدثنى على بن هارون المنجم عن أبيه عن جده :

« دخل المؤمل بن أميل مسجد الكوفة فى يوم جمعة ، وقد نمى إلى الناس خبر وفاة « المهدى » وهم يتوقعون قراءة الكتاب عليهم بذلك ، فقال رافعاً صوته :

مات الخليفة أيها الثقلان

فقال جماعة من الأدباء : هذا أشعر الناس ، نعى الخليفة إلى الجن والانس فى نصف بيت ، وأمده الناس أبصارهم وأسماعهم متوقعين لما يتم به البيت ، فقال :

فكأنني أفطرت فى رمضان

فضحك الناس به ، وصار شهرة(١)

وما يقوله (المرزبانى) واضح الدلالة فى أن السامعين ، وقد صدم المصراع الثانى من البيت مسامعهم أحسوا بأن الواشجة بين مصراعى البيت غير قائمة ولا متجانسة ، وإذا كان موقفهم من الملاءمة ومراعاة الانسجام بين مصراعى البيت على ما عرفت ، فقد اهتموا إلى ذلك بما تنبىء به ابتداءات القصائد ومطالعها بالغرض الذى يسرى فى ثناياها ، وأن يحترز فيها مما يتطير منه أو يستجفى من الكلام والمخاطبات ، وإلا ففيم كان هذا الاستقصاء الذى انتظم أحسن ابتداءات الجاهلية ، على ما رأوه فى قول « النابغة » :

---

(١) الموشح ٢٦٨ .

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وأحسن مرثية جاهلية ابتداء ، وأحسن مرثية إسلامية ابتداء ، وأحكم ابتداء للعرب فى قصائدهم (١) ، هذا الاستقصاء — الذى يستفيض تعقبه — إن دل على شيء فإنما يدل على رهافة الذوق ، أو إن شئت على الوحدة الموضوعية الفنية للقصيدة... بهذا المنظور — وغيره كثير — يبدو «التضمين» عند بعض النقاد القدامى بمنأى عن وحدة القصيدة ... وانسياب الأفكار الجزئية فى إطارها ...

فإذا اعتبر بعضهم التضمين عيباً كان المقصود بالعيب « خضوع الشاعر للاضطرار ، وعدم تمكنه من حسم الصراع بين المعنى (وبين) العبارة على نحو ينبيء عن فحولة ومقدرة ، وربما جاز أن نقول : إن احتياج عبارة القافية فى البيت لعبارة البيت الذى يليه يضعنا فى حالة اضطرار إلى التضحية بأحد أمرين ، إما الخاصية الموسيقية و الميزة الصوتية الناجمة من الوقوف على القافية فى نهاية البيت مع اكتمال وزنه ، وإما المعنى ، فمراعاة الموسيقى تضحية بالمعنى ، ومراعاة المعنى — ينطق آخر البيت الأول موصولا بأول البيت الثانى — تضحية بالموسيقى ، والشاعر الحاذق هو الذى يمكنه الجمع بين الميزتين ، ومن هنا كان من صور التضمين ما يبعد عن العيب إلى حد كبير ، وهى الصورة التى أطلقوا عليها (الاقتضاء) والتى يمكن فيها الوقوف عند نهاية البيت الأول ، رغم وجود التضمين(٢) .

على أن البلاغيين مع هذا لم يفتهم التمييز بين صور وأنماط من التضمين ، فقول « امرئ القيس » :

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله ومن يزيد ومن حجر
سماحة ذا وبر ذا ، ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

(١) راجع ، الصناعتين ٤٥١ وما يليها
(٢) مجلة الشعر (أكتوبر ١٩٧٧) من مقال للدكتور (عبد الحكيم رضى) ٤٧

وان كان مضمنا لا يعد معيبا ، لأنه يمكن الوقوف على البيت الأول منهما ، وهو ما يسمى بالاقتضاء عندهم(١) :

(د) ويبقى أن تعرف أن بناء القصيدة على بحرها العروضى الذى كون وحداتها الموسيقية وإيقاعها المنغوم يتواءم مع التجربة الشعرية ، فمعلوم أنها من بحر الوافر .. الذى يتكون من التفعيلات العروضية الآتية :

مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مقاعلتن مفاعلتن مفاعلتن

ثم إن (سوار بن المضرب السعدى) اختار له قافية تونية دارت عليها أبيات القصيدة من البداية إلى النهاية .

« وإذا كانت الناحية الموسيقية مما تتواءم مع الدفق الوجدانى للشاعر فإن من الضرورى أن نقرر أن بحر « الوافر » يمتاز بالتدفق وتلاحق الأجزاء وسرعة النغمات ، إذا كان تاما ، وهو أشبه بالوزن الخطابى يشتد أو يلين حسب الإرادة ، وقد صلح لمثل الهجاء والفخر والمدح ، كما صلح للغزل وما إليه ، وهو سلاح ذو حدين ، ومجزوؤه يصلح للغناء والأناشيد كسائر البحور القصار(٢) » .

ولعل ممن فطن إلى طواعية هذا البحر الشعرى وصلاحيته للترجيع والنواح « حازم القرطاجنى » فهو يقول :

ومما يبين ذلك أن لكل وزن منها طبعا يصير نمط الكلام مائلا إليه أن الشاعر القوى المتين الكلام إذا صنع شعرا على « الوافر » اعتدل كلامه وزال عنه ما يوجد فيه مع غيره من الأعاريض القوية من قوة العارضة ،

---

(١) راجع فى هذا منهاج البلغاء وسراج الأدباء تتمة الفائدة .

(٢) مجلة الشعر (أكتوبر ١٩٧٧) ص ١ .

وصلابة الطبع ، واعتبر ذلك بأبي العلاء المعرى فإنه إذا سلك الطويل توعر فى كثير من نظمه حتى يتبغض ، وإذا سلك (الوافر) اعتدل كلامه وزال عنه التوعر ، وماشئت أن تجد شاعراً إذا قال فى المديد والرمل ضعف كلامه ، وانحط عن طبقته إلى الوافر كانحطاطهما فى الوافر عن الطويل إلا وجدت ، فهذا يدلك على صحة ماذكرته ، فأما الضعفاء فكلامهم فى الوافر وما أشبهه من الأعاريض المتوسطة أقل قبحاً (١) .

ودفقات (سوار) دفقات متوالية ، يجد لها صدى فى نفسه يتتابع ويتلاحق فى دوى ، فهو شاعر محكوم عليه بالطرد ، تتعقبه يد باطشة ، سوف لاتجد بدا من التنكيل به ماوقع فى قبضتها ، ومثل هذه الحالة النفسية التى عاشها الشاعر — على رهافة حسه جديرة أن تقض مضجعه وتؤرق حياته ، فإذا أضيف إلى ذلك أن إبعاده عن (سلمى) صاحبته غدا أمراً محتوماً أدركت إلى أى مدى كانت زفراته الحارة التى تصاعدت ترجمة عن وجيب قلبه وخفى مشاعره ...

فالحالة النفسية — إذن — من شأنها أن تنطلق فى مسيرة تتجسد فيها نبضات الشاعر دون إعاقة أو حائل ، وليس أنسب من بحر الوافر ولاأكثر تجاوباً من وحداته أو مداميكه لنقل تجربة تخالجه وتعيش فى وجدانه .

هذا من حيث انعطاف التجربة إلى بحر (الوافر) .

وأما من حيث قافيته النونية المكسورة المقيدة بألف قبلها فالذى أراه أن قافية القصيدة — على تلك المثابة — اكتمل لها الانسجام وأما من حيث روى القصيدة فقد جاء (نونا) مكسورة ، قبلها حرف (مد) يسمى ردفاً ، والقصيدة مردوفة على تلك المثابة — اكتمل لها من التنغيم الصوتى مايكاد يرسم

---

(١) راجع : منهاج البلغاء وسراج الأدباء .

معالم التجربة ، أو لعل هذه المقومات التى استعان بها كشفت عن الحالة النفسية ، فالمد الذى وقع قبل الروى يتيح للشاعر أن يطلق الزفرة اللاهبة ، والأنة الضارعة ، والآهة اليائسة فيتجاوب بها الفضاء الواسع والأفق الرحب ، وربما رثت مظاهر الكون والطبيعة لحالة فرقت له وأشفقت عليه ، فادا أعقبته النون حملته على جناحيها الرفافين إلى عالم من الشجن مفعم بالأنين المحزون الذى يصدر على وتيرة من اللوعة المحرقة ، والألم الممض ... ناهيك بالكسرة التى تولد الياء فى التجاوب مع حالات التوجع والانكسار ، وكأنما اختيار هذه القافية ، وبناء القصيدة عليها راجع إلى إحساس الشاعر الفنى أن تشتمل على النون الذى يعد من أوضح الأصوات الساكنة فى السمع كالراء واللام* .

وقد ألمح النقاد القدامى إلى ذلك ، ورغبوا فى أن تهذب القوافى ، بأن تكون سلسلة المخارج مألوفة ، معللين لذلك بأن القوافى حوافز للشعر (١) .

وليس يخفى بعد ذلك أن التفعلية التى تحكم اللحن الموسيقى فى القصيدة وتسرى فى ثناياها ينفق فيها الكم المقطعى الذى يحدث إيقاعاً رتيباً يتضافر مع المظاهر الموسيقية ذات الرنين الذى يشبه إلى حد كبير إيقاع المعزوفة الحزينة ..

ومع ما اتشحت به القصيدة من جو مفعم بالمرارة والغصة وتحدى الأيام له حاول (سوار) أن يكون بعيداً عن الحكمة فى تجربته ، اللهم إلا من بعض حكمة تدلت إلى الأبيات الأولى منها ، حيث الحنين إلى الذكريات يشده شدا إلى الأماكن التى تنفس فيه أحلامه ورغائبه فبدت متناغمة مع المعنى .

(*) الطر الأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس .

(١) البديع فى نقد الشعر ٢٨٩ لأسامة بن منقذ تحقيق د. أحمد حمد بدوى و د. حامد عبد الحميد .

وقد يفسر ذلك بأن الشاعر وظف الحكمة فى صدر قصيدته توظيفاً فنياً ، فجاءت تمسح عنه كربته ، وتخفف عنه المكاره التى تألبت عليه ، واجتمعت لحربه ومناوأته :

فلا أنمى ليالى بالكلندى فنين ، وكل هذا العيش فان

ثم تتوارى الحكمة من قصيدته وتستخفى :

واختفاء الحكمة من القصيدة يعنى التوفر على تكثيف العالم النفسى الذى عاشه الشاعر حينئذ ، مما يفضى بطبيعته إلى تهيئة الجو للتدفق الموسيقى الذى يصبه بحر الوافر ويزخر به ..

ولو أنه عدد الحكمة لضاءل ذلك من تكثيف الجو الذى يسيطر عليه وهو مما ينبو عن المقام أو ينبو المقام عنه .

وثمة لفتة أخرى أسهمت إسهاماً بارزاً فى الكشف عن الأحاسيس الدامية للشاعر ، فقد كان مفروضاً عليه أن يرحل ، بيد أن رحيله بما اكتنفه من مصاعب بالغة ضاعف مرارته ، فالبلاد التى يقطعها ، وينتقل عبرها ظمأى الريح ، خاشعة القنان ، وهى إلى ذلك تلفظه فلا توفر له جوا من الأمن يستشعره ، وكأنه صار كرة تتقاذفها الأماكن ، بل وتركاه والعاذلون يقعدون له كل مرصد ، يسلقونه بألسنة حداد ، وطائر الشؤم والنحس يطلع من وراء الأفق ، ويزيد إحساسه مرارة : حمامتان تبكيان شجوا ، فيكون البكاء نذيراً بالقطيعة والفراق .

ويطرد جو القصيدة قتامة ودكنة ، حين ينبىء الشاعر أن مثله ممن تجهم له الزمن وأصبحت الحياة حربا عليه ما يزال متماسكا لم تعصف بلبه الأحداث ، ولم تذهب عنه نخوته أو وفاؤه ، مما آتى مضرب الأمثال على رءوس الأشهاد ، وكأنى بالشاعر يرجو أن يقول : ما هكذا ينبغى أن يكون للدهر مع المحبين الأوفياء ، وهنا تبصر عنف التجربة وقسوتها والمذع الجو وحرقته ، ذلك أن الزمن الخشون قد يترك الأنذال من الرجال

يرتعون فى بلهنية من السعادة والعيش الرافه ، بينما يقف للشرفاء بالمرصاد يحاربهم بوسائله ، ويجند أدواته وأسلحته للقضاء عليهم أوالنيل منهم أولا ترى إليه يشيد بمواقفه الجسور فى غير هذه القصيدة فيقول :

أجنوب أنك لو رأيت فوارسى ... بالسيف حين تبادر الأشرار
سعة الطريق مخافة أن يؤسروا ... والخيل يتبعهم وهم فرا
يدعون سواراً إذا الحمرا القنا ... ولكل يوم كريهة سوار (١)

كما يمتدح بالكياسة والعقل والمروءة ، قائلا :

ياأيها القلب هل تنهاك موعظة ... أو يحدثن لك طول الدهر نسيانا
إنى سأستر ماذو العقل ساتره ... من حاجة ، وأميت السر كتمانا
وحاجة دون أخرى قد سنحت لها ... جعلتها للتى أخفيت عنوانا
إنى كأنى أرى من لاحياء له ... ولا أمانة بين الناس عريانا (٢)

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٣/٦٨٦ نشر الأستاذين : عبد السلام هارون ، وأحمد أمين .

(٢) نفسه ٢/١٣٦١ .